

فيزا الى التيبت

لان وَينجتون



فيزا الى التيبت

آلان وينغتون

فيزا إلى التيبت

ترجمة

نخبة من الأساتذة الجامعيين

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٥٩

مقدمة

كثرت التعليقات والتقولات في الآونة الاخيرة حول «غزو» التيبت من قبل قوات ماوتسي تونغ . وكان احتلال هذا البلد من قبل القوات الاجنبية هو حدث جديد من نوعه في تاريخ العالم ، او كأن بلد الثلج كان يعيش دوماً بسلام وسط جباله مجهولاً من جيرانه .

والواقع ان هذا التفسير لا يمتّ الى الحقيقة التاريخيــة باية صلة ، لأن التيبت كانت تعيش منذ ما يقرب السبعة القرون تحت نظام التبعية للصين ضمن نطاق الحكم الذاتي . وقد اعترفت جميع الدول الغربيــة بهذه التبعية ، كما تعرضت التيبت خلال تاريخها الطويل الحافل مرات عديدة للاحتلال من قبل الجيوش الصينية والانكليزية ، واخيراً فان الصين هي التي منحت سلالة الدالاي لاما السيادة على بلاد التيبت ، بعد ان ادى يمين الولاء والطاعة لامبراطور الصين .

غير انه لا بد لنـا من القول ان ثورات التيبت على

قوات الاحتلال الاجنبية لم تنقطع منذ ذلك التاريخ . ففي عام ١٧٠٠ نشبت اضطرابات خطيرة ضد الاحتلال الصيني ، وقد اغتنم الصينيون هذه الفرصة لتوطيد دعائم سلطانهم ، فألحقوا جزءاً من التيبت الشرقية بامبراطورية الصين . وفي عام ١٧٠٦ خلع الصينيون والمنغول الدالاي لاما عن العرش وقتلوه ثم وضعوا بدلاً عنه احد صنائعهم . وفي النهاية وجه الامبراطور كانغ شي جيشاً نحو لاهاسا عاصمة التيبت ووضع فيها حامية مؤلفة من الفي محارب ، كما انشأ على طول طريق كانغتين مراكز عسكرية ، ودعم جميع هذه التدابير بتعيين مقيمين صينيين في لاهاسا مهمتهم الاشراف على حكومة الدالاي لاما ومراقبتها . وقد بلغت السيطرة الصينية على التيبت اوجها في هذا العهد ثم ما لبثت ان تضاءلت عقب وفاة الامبراطور الصيني كين لونغ ، وعادت التيبت دولة مستقلة لا تربطها بالصين الا رابطة الحماية النظرية التقليدية .

وفي اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تعرضت « بلاد الثلوج » الى مصاعب من نوع جديد ذلك ان الانكليز المقيمين في الهند كانوا يحاولون على الدوام اقامة علاقات تجارية مع التيبت لاستغلال مواردها وتوسيع نطاق نفوذهم ، فاغتنموا في عام ١٨٩٠ مناسبة وقوع حوادث واضطرابات على حدود التيبت والهند وفرضوا بالقوة على حكومة الدالاي لاما وضع اتفاقية ضمنت لهم

مصالحهم . وفي عام ١٩٠٤ ادعت السلطات الامبراطورية في الهند ان حكومة التيبت اخلت بشروط الاتفاقية فأرسلت بعثة عسكرية اجتاحت التيبت ووصلت حتّى لاهاسا .

وقد ادت هذه العمليـــات العسكرية الى زعزعة ثقة اهالي التيبت بالصين لعدم قدرتها على حمايتهم من الاحتلال الانكليزي ، فنشبت اضطرابات خطيرة في منطقة التيبت الشرقية المتاخمة لحدود الصين ، اخمدت بعنف وقساوة من قبل المفوض الصيني (شاو اول نونغ) الذي اقترح ضم جزء آخر من التيبت الى الصين ، وكاد هـــذا المشروع يتحقق لولا نشوب ثورة عام ١٩١١ في الصين ، وانشغال الصينيين بامورهم للداخلية .

وهكذا فان احتلال قوات الصين الشيوعية للتيبت لم يكن حدثاً جديداً من نوعه وانما له سوابق عديدة في التاريخ وان اختلفت سياسة حكومات الصين المتعاقبة تجاه التيبت . وقد تمسكت الصين على الدوام بحمايتها على التيبت ولم تكن تترك لحكومات لاهاسا استقلالها الذاتي الا حين تجد نفسها ضعيفـــة عسكرياً لا تقوى على فرض سيطرتها وبسط نفوذها .

وفي عام ١٩٢٧ دخلت العلاقات الصينية التيبتية مرحلة جديدة تعد بحق من اشد العهود وطأة على التيبت . فلم تتمكن حكومات الكومنتانغ بسط سيطرتها ونفوذها السياسي على حكومة لاهاسا وانما حاولت اتباع سياسة الدمج التي

تهدف الى القضاء على شخصية وميزات الشعب التيبتي وعلى ثقافته العريقة ، حتى انه كان من المحرم على اطفال التيبت التحدث في المـــدارس بلغة بلادهم . وبالاضافة الى ذلك كانت الضرائب والرسوم وغيرها من التكاليف المالية ، تهوي على الفلاحين بشكل مخيف ، الأمر الذي ادى الى اندلاع نار الثورة من كل جانب .

والواقع ان شيان كاي شك نجح في حمل اهالي التيبت على كراهيته لدرجة دفعتهم الى دعوة خصومه الشيوعيين لدخول بلادهم ، لا اعتناقاً منهم لايديولوجية سياسية بالطبع وانما املاً بالخلاص من ظلم الكومنتانغ .

ولذلك فان جيش التحرير الوطني التابع لحكومة الصين الشعبية لم يجد في طريقه الى لاهاسا اية مقاومة تذكر ، ولم يضطر الى محاربة اهالي التيبت الذين مدوا له يد المساعدة حيث تبينوا انه خلافاً لسابقيه لا ينهب ولا يسرق ، بل يحترم في جميع المناسبات عادات ومعتقدات الشعب التيبتي ، حتى ان الدالاي لاما الذي فر ملتجئـــاً الى الهند عاد الى لاهاسا بعد ان اطمأن على ان سلطاته لن تمس .

* * *

ما هو وضع التيبت في الوقت الحاضر ؟

ماذا جرى فيها من الاحداث منذ رحلة آلان وينينغتون مؤلف هذا الكتاب ، عام ١٩٥٢ ، حتى نشوب الاضطرابات الاخيرة واقالة الدالاي لاما ؟

لا شك في ان اوضاع البلاد الاقتصادية تحسنت بسرعة لا يمكن تصورها بالنسبة لبلد يعيش حتى الآن حياة القرون الوسطى . ونحن نقدم فيما يلي لمحة عما تم تحقيقـــه من المشاريع في التيبت .

مراكز لتوليـــد الكهرباء في عدد من المدن ، معامل مختلفة بما في ذلك معمل لترميم السيارات وآخر لانتاج المواد الكيماوية، ثلاث مزارع تجريبية ، قروض الى المزارعين، ٦٠٠٠ كلم من طرق السيارات ، خط حديدي قيد الانجاز يصل بكين بلاهاسا الخ ...

ومن الامور التي يضرب فيها المثل كدليل على تقدم اقتصاد البلاد انه على الرغم من تأكيد الخبراء الزارعين في الغرب عدم امكانية نجـــاح زراعة الذرة الصفراء في الاماكن الشديدة الارتفاع ، توصل الخبراء في التيبت الى زرعها على ارتفاع ٣٨٠٠ م فوق سطح البحر ! .

ومن جهة اخرى احترمت حكومة الصين الشعبية بامانة عادات ومعتقدات التيبتيين ، وساعدت على تطوير لغتهم وثقافتهم التقليدية وفقاً لنصوص المعاهدة المبرمة عام ١٩٥١ مع حكومة الدالاي لاما . كما حافظ الدالاي لاما والبانشن لاما على كافة سلطاتهما الروحية والزمنية .

نعم لقد بذلت حكومة الصين الشعبية جهوداً جبارة في سبيل تطوير الحياة الاقتصادية في التيبت ، ورفع المستوى المعاشي لسكانها ... ومع ذلك فان هذه الجهود لم تكلل

بالنجـاح المنتظر لها ، حتى ان بعض المراقبين تكلم عن نصف فشل اصاب تلك الجهود ، والزعمـاء الصينيون يعترفون بذلك صراحة .

ولعله من المفيد ان نتساءل عن اسباب الصعوبات التي تعترض الصينيين في تنفيذ برامجهم ، وعن بواعث هذه الاضطرابات والفتن التي تتفشى بين الحين والآخر في شتى بقاع التيبت .

لا شك ان السبب الرئيسي يعود الى شدة جهل الشعب التيبتي والى تفكيره المحافظ وكراهيته للتجديد ؛ بالاضافة الى هذا النسيج من الخرافات التي تقوم لديه مقام الدين : فهو يتخذ موقفاً معادياً بصورة مبدئية ضد كل الاصلاحات ، وجميع التدابير التي تصدم معتقداته والتي لا يتوصل الى تفهم ضرورتها وفائدتها .

ان (آلان وينينختون) يقدم لنا في كتابه « فيزا إلى التيبت » امثلة نموذجيـة عن معارضة قبائل التيبت للتدابير الرامية الى معالجة الامراض التي تبيد اغنامهم ، ولصنع المصول الواقيـة ولعمليات التطعيم الوقائي ، وللحملات المنظمة التي تهدف الى ابادة الذباب والقمل . انهم يعارضون منذ الوهلة الأولى جميع المعطيات العلمية التي لا تتفق مع معتقداتهم ، وهذا هو السبب الذي يجعل عملية التنقيب عن المعادن صعبة للغاية في التيبت ، بالنظر لحصول القناعة لدى التيبتيين بان مجرد حفر الارض يعـد بحد ذاته مسبة بحق

الآلهة التي تعيش في جوفها ... كما انه . جلاء القوات اسباب نشوب الاضطرابات بصورة خاصة في المد. اعتباراً في الجهل والتأخر .

على انه يمكننا ان نضيف على ذلك ان قبائل الميانك والكامبـــاس التي انفجرت لديها اشد الثورات خطورة ، كانت منذ القـــديم في ثورة مستمرة ، لا ضد الصينيين فحسب وانما ضد سلطة الدالاي لاما بالذات . فهي قبائل غيورة على حريتها واستقلالها ، تعادي كل سلطة مهما كانت طبيعتهـــا ، فبعد ان ثارت ضد حكومة لاهاسا وحكومة الكومنتانغ ، نراها حالياً تثور ضد الحكومة الشعبية ، ولكن الثورة لم تتعـــد في جميـع هذه الأحوال مجرد مظهر من مظاهر جنوح قبائل التيبيت الفطري نحو الفوضى ، دون ان تلعب ايديولوجية الخصم اي دور في نشوب تلك الثورات ، هذه الايديولوجية التي تجهلها قبائل التيبيت جهلاً تاماً ، ولا تعيرها اي اهتمام .

ولعله توجد هنـــالك اسباب اخرى للتآمر الذي تبديه بعض عناصر الشعب التيبتي ، واحدها هو ولا شك موقف بعض اعضاء (الكادر) الحكومي الصيني الذي يساعد على تنفيذ البرامج الاصلاحية في التيبيت .

من المعروف ان مذهب الحكومة الشعبيـــة فيما يتعلق باوضاع الاقليـــات وحقوقها ، هو على قدم المساواة مع جميع القوميات الاخرى ، بواسطة منحها الاستقلال

الذاتي . ولكن هذا امر لا يمكن تحقيقه الا في حالة وجود كادر محلي مدرب يقــوم باعباء تطبيق سياسة الحكومات المحليه ، وبما ان التيبت تفتقر في الوقت الحاضر الى العدد اللازم من الاختصاصيين ، فان الكادر الصيني هو الذي يسيطر في جهاز الدولة التيبتي ، ولعل التصرفات البيروقراطية لبعض اعضاء هذا الكادر اثارت تذمر ونفور بعض عناصر الشعب في التيبت .

مهما تكن بواعث هذه الثورات ، فانها ادت في الواقع الى تصلب موقف السلطات التيبتية هذا التصلب الذي ظهرت بوادره بصورة خاصة بعــد زيارة الدالاي لاما للهند في نيسان ١٩٥٧ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على ميلاد بوذا .

ويقال ان الدالاي لاما احتك خلال هذه الزيارة مع بعض الدبلوماسيين الانكليز والاميركان وتلقى منهم بعض « النصائح » ، ومن المؤكد كذلك انه اخذ بعين الاعتبار مخاوف بعض رجال الاقطــاع في التيبت ، الذين اخذ القلق ينتابهم من اقتراب موعد تحقيق الاصلاحات الاشتراكية المعلن عنها ، هذه الاصلاحات التي يحتمل ان تؤدي الى تجزئة وتوزيع اراضيهم . وقد ظهرت بوادرها من الآن في الغاء تقديم الخدمات المجانية (نظام السخرة) المعروفة تحت اسم (أولا) ؟

لذلك فان الدالاي لاما مدعوماً بغالبيــة كبار رجال الدين ، اجرى بعد عودته من الهند محادثات مع الرئيس

الصيني (شوان لاي) تهدف الى استعجال جلاء القوات الصينية عن التيبت . كما ان حكومة لاهاسا باشرت أعتباراً من شهر حزيران ١٩٥٧ باصدار اوراق نقدية تختلف عن الاوراق النقدية الصينية .

ومما يدعو إلى الدهشة والعجب ان الرئيس الصيني (ماوتسي تونغ) ببراعته المعهودة ، وتفهمه للواقع ، قبل جميع مطالب السلطات التيبتية ، فقال في خطاب له بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٥٧ :

« وفقاً للاتفاقية المعقودة بتاريخ ٢٣ أيار ١٩٥١ بين الحكومة المركزية الشعبية والحكومة المحلية للتيبت ، فان اصلاح النظام الاجتماعي في التيبت سيتحقق يوماً ما ، لكننا لسنا على عجلة من امرنا . ان الاصلاح سيتحقق حين نرى الاغلبية الساحقة للشعب التيبتي مع حكامه ، ان تطبيقه اصبح ممكناً . ولذلك فقد تقرر تأجيل تطبيق هذا الاصلاح خلال فترة مشروع الخمس سنوات الثاني » .

وقد استقبل هذا القرار بترحيب بالغ من قبل السلطات التيبتية ، وعبر الدالاي لاما والبانشن لاما عن اغتباطهما به في رسائل وجهت الى ماوتسي تونغ بمناسبة عيد اول اكتوبر الوطني ، وبينا في هذه الرسائل استعدادهما للمساهمة في تطبيق الاصلاح المنشود متى حان وقته .

نعم ان الصينيين ليسوا على عجلة من امرهم لانهم يقدرون مدى الصعوبات التي تعترض طريقهم في التيبت .

فهم في حاجة ماسة الى معونة حكام وزعماء التيبت كي يستطيعوا توجيه الشعب التيبتي الجاهل توجيهاً صحيحاً نحو الاصلاح ، في انتظار تشكيل كادر من الموظفين المدربين يستطيعون التأثير على افراد الشعب الغارق في بحر من الفقر والجهل والخرافات .

واذا كان فلاحو التيبت راضين عن حياة العبودية التي يرزحون فيها حالياً ، فان سبب ذلك يعود فقط الى نفوذ وسطوة رجال الكهنوت اللامويين ، هذه السطوة التي تستند على جهل الشعب وتعلقه بالخرافات .

ان سكان التيبت يعيشون في قلب طبيعة جافة معادية ، معرضين الى الاخطار باستمرار ، ومن الطبيعي والحالة هذه ان يعزوا مصائبهم الى قوى الهية شريرة ، لذلك فهم دوماً في حاجة الى رجال الكهنوت الذين يتمتعون وحدهم بميزة ممارسة الطقوس السحرية التي تجرد الشياطين من تأثيرها الخبيث !... فكيف ينتظر من هؤلاء المساكين ان يثوروا ضد هؤلاء الذين يحمونهم من عبث الآلهة الشريرة والذين في مقدورهم ان يصبوا على رؤوسهم افظع المصائب ؟

ولكن حين يحين اليوم الذي يدركون فيه ان نفوذ وسيطرة اللاما لا تستند الى اساس ولا يمكن ان تعود بالنفع عليهم ، فسيقبلون حينئذ بنفس حماس الفلاح الصيني ، الانقضاض على هؤلاء الذين يستثمرون جهلهم ويطالبون بتوزيع

الاراضي بشكل اقرب الى العدالة .

هذا هو مغزى السياسة الصينيـــة في التيبت ، وسر تريثهم في تطبيق الاصلاح الاجتماعي ورغبتهم في التعاون مع الدالاي لاما واعوانه .

ولكن كيف نفسر والحالة هذه الانقلاب الفجائي الذي طرأ على السياسة الصينية مؤخراً في بلاد الثلوج ؟

ما هي اسباب عودة الاضطرابات والقلاقل الى التيبت، واقالة حكومة الدالاي لاما ، وهروب هـــذا الاخير الى الهند كلاجيء سياسي ؟

هناك من يقول ان الصينيين شعروا بان الأوان قد حان تطبيق الاصلاح الاجتماعي في التيبت بعد تخرج عدد كبير من شباب التيبت المدربين المتحمسين ، من مدارس الاقليات في الصين .

ويقول آخرون ان الدالاي لاما لم يعد موضع ثقة بالنسبة لحكام الصين نظراً لميوله البريطانية ، ولذلك اغتنموا فرصة قيام الاضطرابات لازاحة الدالاي لاما نهائياً من الحـــكم والعهدة بتشكيل الحكومة الى البانشن لاما المعروف بميوله الصينية منذ القديم .

وسواء كانت هذه التكهنات تمت الى الواقع بصلة ام لا ، فانه مما لا شك فيه ان الصراع الدائر حالياً في التيبت لم يبلغ بعد مرحلته النهائية ، وان المستقبل يخبيء كثيراً

من المفاجآت .

* * *

ان تحويل التيبت من نظام القرون الوسطى الى النظام الاشتراكي هو عمل جبسار يحتاج الى كثير من الوقت والجهد ، ويتطلب كثيراً من الصبر والبراعة والذكاء.

ولا شك في ان كتاب آلان وينينغتون (فيزا الى الهند) هذا يستطيع ان يعطي القارىء العربي كلمة واحدة عن الحياة في التيبت وعن اهمية الصراع الذي يدور حالياً في « بلاد الثلوج » .

الفصل الأول

ضيوف الآلهة الحية

دق جرس التلفون ليزف الي نبأ السماح لي بزيارة التيبت . وكم كان فرحي عظيماً لتحقيق هذا الحلم الذي طالما جال في نفسي وراود مخيلتي خلال السنين المنصرمة ألم اتقدم بطلب الاذن منذ عام ١٩٥٠ ثم حالت ظروف الحرب الكورية دون رحيلي !؟ هأنذا الآن مستعد للفحص الطبي الذي لا غنى عنه كي تتأكد السلطات من عدم اصابتي بمرض ارتفاع الضغط في الشرايين ؛ ومعي ثمانية من الصحفيين بادي الاضطراب مثلي ، خوفاً من عدم النجاح . ذلك ان ارتفاع الضغط كما قال لنا الطبيب المكلف بفحصنا خطير جداً في المناطق المرتفعة حيث يتقلب الطقس ويندر الهواء .

ان عدد الغربيين الذين حظوا بزيارة التيبت اقل من

القليل نظراً الى شروط الاقليم الصعبة . الارض بالغة الارتفاع ، والاوكسجين نادر الوجود والطقس شديد التقلب بالغ القسوة . زد الى ذلك ان سكان التيبت انفسهم تفننوا في خلق العراقيل ليحولوا دون تغلغل الاجانب .
لذلك كله لم تتمكن سوى حفنة قليلة من الاوروبيين من انجاز الرحلة الشاقة سيراً على الاقدام وركوباً على صهوات الجياد عبر جبال هملايا الشامخة نحو المدينة المقدسة : لهاسا .

اما رحلتي فكانت فريدة من نوعها بالنسبة الى من سبقني من الغربيين ، لانني كنت متأهباً لعبور التيبت من شرقها الى غربها بموافقة وحماية الآلهين الحيين المتربعين على هذه البلاد وهما الدالاي لاما والبانشن لاما . كان ذلك في اعقاب الفترة العصيبة التي مرت بالتيبت اثر دخول الجيش الصيني اليها عام ١٩٥٠ والتجاء الدالاي لاما الى الاراضي الهندية ثم ارساله وفداً للتفاوض مع بكين عام ١٩٥١ . وقد اتفق الطرفان على « دعوة التيبت الى كنف العائلة الكبرى في الوطن الأم (الصين) » . كما اتفقا على احترام طراز الحياة المتبع في التيبت وعدم التعرض له دون موافقة اهل التيبت انفسهم .

منذ عقد هذه المعاهدة ، لم يطأ ارض التيبت أي مراسل اجنبي .

فماذا طرأ على هذه البلاد ؟ وماذا كانت نتيجة

احتكاك الصين الحديثة مع التيبت التي هي أشد المجتمعات محافظة.

ان هذا الوضع ادى الى تضارب شديد في الآراء حتى صار من النادر رؤية كاتبين متفقين في الرأي .

يلتقي مثلاً أغلب الذين اقامـوا بعض الوقت في التيبت بقولهم ان من الاعراف الدارجة هناك ان تتزوج امرأة من عدة اخوة أو رجل من عدة اخوات . الا ان كاتبة تيبتية شابة متزوجة من سياسي بريطاني دحضت كل هذه الادعاءات .

* * *

تتكون التيبت من هضبة شاسعة تمتد شمالي الهنـد وبيرمانيا . وتقدر مساحتها بـ ١،١٥٠،٠٠٠ كلم مربـع ويتراوح ارتفاعها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ قـدم . تحيط بهذه الهضبة سلاسل عديدة من الجبال العالية . اما طقسها فشديد التقلب والهواء فيها بالغ الندرة حتى ان احـد الصينيين قال لي : « ان الهواء مجـاني ولكن لا يمكن شراؤه في تلك المرتفعات » . لذلك يحتاج ابن السهول الى عدة اسابيع كيما يعتاد على ندرة الاوكسجين . وقبل ان يتأقلم الجسم الانساني مع جو الهضاب المرتفعة فان ادنى عملية تسلق تولد فيه شعوراً بدوران الرأس وازدياداً في خفقان القلب ولا يلبث ان يحل به الاعياء الشديد . الا أنه لا يحس بأي انزعاج خلال فترة الراحة اللهم الا اذا كان له استعداد سابق لمرض الجبال . اما رد الفعل عند

المصاب فشديد حتّى ليخيل اليه ان قلبه يكاد ينفجر عند كل دقة من دقاته ، ناهيك عن الالم الشديد الذي يحل بالرأس . ومن علائم مرض الجبـال الشعور بالرغبة في التقيؤ والخوف من الفراغ .

كان علينا ان نسلك احد طريقين كان قد بناهما الجيش الصيني في مدة وجيزة جداً عبر الجبال والصحارى .

يقطع هذا الطريق الذي يصل بين يا آن ولاهاسا اربع عشرة سلسلة جبلية واحد عشر نهراً كبيراً .

اضطررنا الى الوقوف قليلاً في بلدة شانغتو ريثما تلتحق بنا بقية القافلة ويتيسر لنا جمع عدة السفر . وشانغتو هذه مدينة صغيرة تعتبر نموذجـاً للمدن الموجودة في مقاطعة سشوان . فيها كثير مـن صالونات الشاي حيث يجتمع الناس للثرثرة ولعب الورق . وقد اتيحت لي رؤية معهد شانغتو الخاص بالاقليات القومية وهو يعد ثاني الجامعات الصينية من حيث الضخامة . ويتلقى فيه المئات من أبناء التيبت العلوم ليصبحوا فيما بعد موظفين في خدمة الحكومة، وهم ينحدرون من شتّى الطبقات الاجتماعية الموجودة في التيبت . كما أن هناك طلاباً من ابناء الاقليات الاخرى .

يرتدي هؤلاء الطلاب زيهم القومي ويتناولون طعامهـم الوطني ويتلقون العلوم بلغاتهم الخاصة .

وفي هذا المعهد معبد بوذي له مكتبته الخـاصة لأن غلب سكان التيبت هم من الورعـين المتمسكين بالدين

اللاموي ؛ كما يوجد فيه قاعة صلاة خـــاصة بالطلاب المسلمين .

وقد اتيح لي التعرف بشابة تيبتية تنحدر من أسرة أرستقراطية اعربت لي عن رغبتها في الشغل في أحـــــد المعامل . قالت لى : « نحن بنات الاسر النبيلة لم نشتغل قط ؛ أما اليـــوم فكثير من صديقاتي يردن العمل ضمن المعامل . سيكون هناك عما قريب معامل كثيرة في التيبت» .
وعلى العكس من هذه النبيلة التي تريد ان تصبح عاملة، تعرفت الى طالبة اصلها من عبيد الارض تعد نفسها لتكون موظفة في الحكومة المحلية .

ان هاتين الفتاتين صورة رمزية للتفاعل الاجتماعي الذي يجري في التيبت .

الفصل الثاني

اجتياز جبال لانغ

خرجت سيارة الجيب التي كان عليها ان توصلني الى لاهاسا ، من شانغتو متجهة نحو ياآن . فمررنا في منطقة غنية خصيبة ، مزدحمة السكان . إلا ان المناظر تغيرت تمام التغير اعتباراً من ياآن حيث تنتصب الجبال وتنخفض الكثافة البشرية . وياآن هذه كانت دائماً مركزاً تجارياً هاماً ونقطة التقاء للطرق . ومنذ شُق الطريق الجديد ارتفع عـــدد سكانها من ٢٠٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ نسمة . وهي تشبه مدينة من مدن الارياف الانكليزية ، ولكن بسكان صينيين . وفيها كثير من المستودعات والعنابر التي تكدس الشاي والمسك والتوابل المعـــدة للارسال الى التيبت . وتعرض واجهات المخازن فيها كل أنواع البضائع المصنوعة والواردة من جميع البلدان . وقد تعرفت في مطعم صغير على شاب صيني أطلعني عـــلى بعض العادات المتبعة

في التيبت .

قال لي : ان أغلب التيبتيين ورعون ويتأثرون بلا شيء . فمثلاً ينبغي على المرء ان يدور حول الاشياء المقدسة في اتجاه عقارب الساعة . ثم قرأ لي قائمة الامور المحظرة في التيبت :

ـ تجنب دخول المعابد دون استئذان الراهب المسؤول .

ـ لا تشر بالاصبع الى صورة مقدسة ، وإذا توجب ذلك فاستخدم يدك كلها .

ـ لا تستعمل مصباحاً كهربائياً داخل المعبد .

ـ تجنب ادارة ظهرك لتمثال بوذا أو الجلوس في حضرة كبار الكهان .

ـ لا تسأل امرأة من هو زوجها . فللكثير من التيبتيات عدة أزواج .

ـ لا تتعجب اذا ما شد أحدهم اذنك وهو يقدم لك بطن يده . ان هذه العادة التيبتية القديمة تعادل المصافحة باليدين عند الغربيين . وادارة بطن اليد دليل على ان الشخص لا يخفي أي سلاح .

ـ لا تمتط الحصان وانت في منحدر .

ـ لا ترفض الضيافة أو الطعام والشراب المقدمين اليك .

واستطرد محدثي قائلا : « اذا ما كنت في صحبة بعض الناس في التيبت وكانوا يأكلون بالاصابع فافعل

مثلهم ، كي لا يخيل اليهم انك تحتقرهم » .

هـــذه المعلومات مهمة بالنسبة الى من يود زيارة التيبت ، أو بالاحرى .. الصعود الى التيبت المسماة « سطح العالم » نظراً لارتفاعهـــا الشديد . لذلك تعتبر مدينة كانغتينغ التي توقفنا فيها لقضاء الليل والواقعة على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم المكان الامثل للتعود على ندرة الهواء ؛

الفصل الثالث

على ارتفاع ثلاثة اميال في سيارة جيب

تميزت صبيحة الغــد بحدوث أول مفاجأة من سلسلة المفاجآت التي برزت لي خلال رحلتي . كنت اتأمل وانا في سريري السقف الذهبي لمعبد كانغتينغ لما تعالت فجأة انغام الموسيقى في ساحة الفندق . وسرعان ما قفزت من سريري هارعاً نحو النافذة . فتبدت لناظري مشاهد رائعة من الرقص العجيب . كان هنالك جمع حاشد يقوم بتمارين رياضية على انغام الموسيقى الصادحة . ووقع بصري على تيبتيين من ذوي الشعر الطويل المضفور لابسين أثواباً من الحرير الزاهي وهم يرقصــون وخناجرهم مشهورة في ايديهم . كما كان بينهم صينيون وفتيان من منطقة «هان» ومن حين الى آخر كانت تند عنهم حركة خاطئة تقطع الانسجام السائد ، إلا أن كل ذلك لم يكن ليضــارع

مشهد أحد الرهبان الذي كان يفوق الجميع في اندفاعه وحماسته . وكان كالبقية من سكان كانزشو .

تبلغ مساحة مقاطعة كانزشو ٦٠٠،٠٠٠ كلم مربع وتقع في النهاية الغربية من اقليم سيشوان . أما سكانها فيقدر عددهم بنصف مليون نسمة اغلبهم من الجنسية التيبتية وخمسهم على الأقل ينتمون الى فئة الرهبان ، وعلى الرغم من أن التيبتيين يشكلون الأكثرية الساحقة من السكان فان كانزشو لا تعتبر جزءاً من التيبت . وتعتبر مدينة كانغتينغ منذ الفي عام مركزاً تجارياً وثقافياً للهان والتيبتيين .

ان الصفة المميزة لكانزشو انها ترتبط بالتيبت من ناحية وحدة السكان العرقية وتشابه النظام الاجتماعي السائد ، والقائم على ملكية كل من المعابد والنبلاء للاراضي . وتتمتع هذه المنطقة منذ عام ١٩٥١ بالاستقلال الذاتي ولها حكومة مؤلفة من مجلس تتمثل فيه كل الفئات الوطنية تمثيلاً نسبياً . وقد ظهر هذا النظام الى الوجود عام ١٩٥٠ لما طرد الجيش الصيني الشعبي قوات شان كاي شك . وقد هرب مع هذه القوات المدحورة بعض التيبتيين لأنهم لم يكونوا عالمين بما سيجلبه النظام الجديد . وقد وجه جيش التحرير الشعبي نداء الى النبلاء ورجال الدين ذكرهم فيه بحق الاقليات في أن تحكم نفسها بنفسها . وقبل بعض رؤساء القبائل وكثير من الرهبان بالعودة وانعقدت عدة اجتماعات عام ١٩٥١ لتبحث أمر تشكيل حكومة محلية

مستقلة .

كانت هذه الحكومة المحلية أول من حاول القيام باصلاح النظم الاجتماعية البالية . وقد قيض لي التحدث عن هذه المسألة الدقيقة مع الرئيس المساعد « سونام » ، وهو مدني من اصل عامي ويحتل منصباً حكومياً رفيعاً . ان اسم سونام الدارج جداً في التيبت معناه « فلاّح » .

قص عليّ سونام كيف قبل الانضمام الى جنود الجيش الاحمر أيام النزوح المشهور . كان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً فقط . وقد اكد لي انه كان رجلاً امياً يتكلم اللهجة المحلية فقط ولا يعرف التحدث حتى باللغة التيبتية العامية : انه واحد من مئات الالوف الذين اتيح لهم مجال التحرر من وضعهم والعمل في خدمة وطنهم .

وقد سألت سونام عن الانجازات الأولى التي حققتها الحكومة الجديدة فأجاب :

كان علينا ان نحل مشكلتين عويصتين : مشكلة الغزوات بين القبائل ومشكلة الأولا « السخرة » . تشير هذه الكلمة الى عادة تيبتية قديمة تضطر الفلاحين الى تقديم خدماتهم مجاناً للرهبان والموظفين والنبلاء . وتتلخص هذه الخدمات في القيام بمهام النقل وتأمين المياه والمحروقات وبناء دور السكن ... الخ ..

كان من الواجب علينا رفع المستوى المعاشي للسكان عن طريق رفع مردود الأرض وزيادة عدد المواشي . إلا

ان الخلافات المستحكمة بين القبائل وعادة السخرة كانتا تحولان دون تحقيق هذا الهدف المزدوج . لذلك لجأنا الى جمع رؤساء القبائل لنوفق فيما بينهم . كانت أسباب بعض خلافاتهم قديمة لدرجـة انهم لم يكونوا يتذكرون سببها ومنشأها . وبعد مناقشات ومباحثات طويلة اتفق النبلاء على احلال السلام فيما بينهم وقبلوا بتحكيم الحكومة في خلافاتهم المعلقة .

ثم التفتنا الى مشكلة « الأولا » وقاربناها في كثير من الحذر لأن هذه العادة كانت متأصلة . وجهدت الحكومة المحلية في ان تكون قدوة للآخرين فابتدأت هي ذاتها بدفع التعريفة الرسمية لقاء الخدمات . ثم سار في أثرهـا بعض النبلاء الذين اخذوا يدفعون للفلاحين اجور خدماتهم . وبلغ في بعضهم الحد انهم اعتقوا عبيدهم وأعطوهم ارضـاً ليحرثوها على حسابهم الخاص .

لقد خلفت هذه الاصلاحات جواً من الحرية الذي لا بد منه لتحسين وسائل الانتاج وتجديدهـا . كما وزعت بعض الآلات الزراعية مجاناً على الفلاحين . وعلى كل حال ليس من شك في ان ادخال التطور الفني يتطلب شيئاً من الوقت وقسطاً من الثبات والصبر .

قبل ان اغادر كانغتينغ الى مناطق الهضاب العالية ، قضيت سهرة في المرقص التابع للبلدية حيث راقصت بعض

الفتيات التيبتيات اللواتي قدمن من كانتز للدراسة في معهد كانغتينغ المخصص للاقليات القومية . وكن يتكلمن لغة الهان بطلاقة تامة ويرقصن الرقصات الغربية برشاقة .

وفي الطريق عبر الجبال اعترضتنا مصاعب كثيرة بسبب البرد الشديد حتى أن طهو الطعام على الطريقة الغربية صار مستحيلاً . إلا ان أهل التيبت قد وجدوا الحل العملي لمشكلة الطعام بتبني « التسامبا » اكلتهم الوطنية الخاصة . وهي معدة بدقيق الشعير المطحون جيداً . أما طعمها فلذيذ ويذكر بالبيرة ؛ إلا انني وجدت شيئاً من الصعوبة في تناولها أول مرة لانهـا كانت تعلق كالصمغ باصابعي ، ويقول الصينيون عنها انها لا تسد غائلة الجوع ، وهذا هو رأيي ايضاً ، إلا انهـا طعام التيبتيين المفضل . وباستطاعة التيبتي اذا ما تزود بكيس من التسامبا وبقداحة من حجر الصوان ان يجتاز مسافات شاسعة عبر هذه الهضاب المقفرة .

لقد حافظت مساكن هذه المنطقة على طابع الحروب القبلية . فهي مربعة الشكل وتتألف من ثلاثة طوابق مبنية على أرض مكشوفة . اما سمك جدرانها فيبلغ ثلاثـة او أربعة اقدام ، يخصص الطابق الارضي عـادة للحيوانات وليس له سوى كوى ضيقة . والبناء في مجموعه على هيئة حصن صغير يسمح بتحمل الحصار .

وتوجد مزرعة حكومية ، غير بعيـدة عن كانغتينغ ،

كانت تدار أول الأمر من قبل الجيش الشعبي . اما الآن فهي تحت تصرف الحكومة المحلية وتعتبر واحدة من سلسلة المزارع التجريبية التي تسمح بدراسة مقاومـة الغرسيات المختلفة في الأراضي المرتفعة .

وفي طريقنا عبر الجبال ، صادفنا في يوم واحد فقط مجموعة متنوعة من المناظر والمناخات . فخيل الينا اننا مررنا بمنطقة اريزونا الاميركية وسويسرا والغابة السوداء ومنطقة البحيرات الكبرى وايسلاندا . واتيحت لنا فرصة مشاهدة « الياك » وهي حيوانات شبيهة بالابقار الوحشية الاميركية . ان الحضارة التيبتية تستند الى هـذا الحيوان الصالح لكل شيء . ولا يمكن رؤية هذا الحيوان في غير التيبت ، حتى ولا في حدائق الحيوانات ، لأنه يهلك اذا ما هبط الى ارتفاع يقل عن سبعة آلاف قدم . أما لون الياك فهو أسود في اغلب الاحيان إلا انه قد يكون رمادياً احياناً . وهو سهل القياد رغم قرنيه المخيفين حـتى ان المرء لا يتردد عن الاقتراب منه منذ أول مصادفة . ولا تتجاوز سرعته كيلومترين في الساعة اذا كان محملاً عبر المسالك الصعبة الضيقة ، ويستخدم في اشغـال الحقل كما يستفـاد من جلده ووبره وحليبه ولحمه الذي يشبه لحم البقر .

لم تكن هذه الحيوانات ترتعش حين كنا نمر بسيارتنا بجوارهـا ونحن نسير في المرتفعات ، ثم بدأنا بالهبوط

في اتجاه « كانز » .

لما وقع بصرنا على هذه المدينة أول مرة ، كان منظرها عن بُعد وهي مغمورة بضياء الشمس لا يدركه الوصف . إلا ان منظرها عن قُرب لم يكن أقل روعة وجمالاً . فهي مدينة كان لها من قبل طابع مدن القرون الوسطى الصرف بفضل معبدها وحصنها وسوقها القديم . أما اليــوم فهي مقسومة الى قسمين : هناك أولاً الضاحية المؤلفة من الابنية العامة البيضاء والحديثة وهناك ايضاً المدينة القديمة الممتدة في سفح المعبد . ولكانز هذه كل خصائص المدينــة التيبتية رغم بُعدها عن حدود التيبت الحالية . وليس بغريب ان يرى في شوارعها فرسان لابسين الحرير ومسلحين بالسيوف. أما النساء فيعمــدن الى تصفيف شعرهن في شكل ضفائر رفيعة لا عداد لها يرسلنها خلف ظهورهن . والنساء هن اللواتي يقمن بأعمال الحقول وهذا ليس بعجيب بالنسبة الى مدينة تقيم نسبة كبيرة من رجالها في المعابد الـتي يبلغ تعدادها الرسمي في منطقة كانز ٤٩ معبداً ، ويقــدر ان هناك راهبين بين كل ثلاثة رجال في هذه المنطقة .

تمتلىء شوارع كانز بالرهبان من كل الاعمار ومن شتى الاوضاع والطبقات الاجتماعية . فهناك رهبان فقراء يلبسون المسوح المستعملة ، وهناك ايضاً رهبان اغنيــاء يرتدون المسوح الحريرية النفيسة . ومن الشائع رؤية بعضهم وهم يبيعون إما على حسابهم الخاص واما على حساب المعبد

وهم لا يترددون عن مناقشة الزبائن ومساومتهم .

ان نصف مدينة كانز يخص المعبد كما هي الحال في كل الحواضر التيبتية . أما القسم الآخر فيخضع مع ذلك للمعبد من جميع النواحي . ويعتبر النبيل من ناحية المكانة الاجتماعية أقل قدراً من الكاهن اذا كان الاثنان من نفس المستوى . واذا ما لبس فلاح شاب مسوح الكاهن فبوسعه سلوك طريق بوذا كما من حقه أن يكون محترماً .

وترتبط الامور الدينية ارتباطاً وثيقاً بالامور التجارية . وكثيراً ما يرى الرهبان والتجار ، كما ذكرنا ، وهم يتساومون مع الزبائن في ساحات الأسواق . وعلى الرغم من تخلف التيبت على الصعيد الميكانيكي فان دينها يعد بحق اكثر الاديان تبنياً للمظاهر الميكانيكية . فالعبارات الدينية وخاصة الصيغة التي تعادل « يا أبانا الذي في السموات » عند المسيحيين تسطر على بكرات من الورق وتوضع في اسطوانات خاصة تدور حول نفسها لاستدرار البركة والرضى .

ومهما يكن من شيء فان المدنية الحديثة تتغلغل في المدينة وتؤثر فيها . فحين شيدت أول مدرسة عامة في كانز وضمت المئات من التلاميذ ، كانت متحررة من سلطة الكهان الحقوقية . كما ان الفلاحين الذين يطالبون بالارض يستلمون من الحكومة المحلية قطعة ارض وقروضاً للبذار وسلفة مالية بفائدة منخفضة جداً . الأمر الذي يتيح لهم

شراء الحيوانات اللازمة ومزاولة بعض الحرف في اوقات الفراغ . كما انهم معفيون من اداء الضريبة خلال خمس سنوات . هؤلاء الفلاحون الذين حسنوا أوضاعهم المعاشية كانوا من قبل من فئة الفلاحين المعدمين الذين كانوا يشتغلون كعمال زراعيين لحساب الفلاحين الآخرين اوكانوا محرومين من المأوى ومضطرين الى التسول .

الفصل الرابع

الجارية والملكة

لا يذكر سائقو السيارات ممر «شولا» الموجود في جبل «الطائر» دون ان يراودهم شيء من الخوف . وليس مرد ذلك الى عدم الاتقان في شق الطريق وانما السبب كثرة العواصف الثلجية التي قد تسد الطريق فجأة معرضة حياة المسافرين لأشد الاخطار . ولما عبرنا هذا الممر كانت السماء ممطرة . ثم وصلنا الى نقطة آمنة حيث تناولنا طعام الغداء في فندق صغير قائم على جانب الطريق .

ووقع بصرنا على بعض الصيادين الذين نصبوا مضاربهم في منطقة الهضاب : ويجدر بنا ان نقول بهذه المناسبة ان قتل الحيوان يشكل مخالفة شديدة لتعاليم الدين اللاموي ومبدأ تناسخ الارواح . لذلك يعمد الصيادون الى صنع تماثيل صغيرة تصور الحيوانات التي يبيعونها للجزارين ،

وقد قيل لنا ان هذه النصب تهدىء من غضب الآلهة وتكفر عن خطايا الجزارين والصيادين .

والحقيقة ان الطريق المشقوق في هذه المنطقة يعد آية في فن البناء . فقد بناه العمال وهم معلقون بالحبال في الفضاء ليثقبوا الجدار الصخري ويفجروه بالديناميت . وقد روت لي شابة تيبتية جمعت بين جمال الصورة وتوقد الذكاء كيف بنى الجيش الصيني هذا الطريق . وذكرت لي ان اباها مات اعياء مما اضطر والدتها الى العمل في حراسة المواشي . كانت هذه الفتاة في الخامسة والعشرين وتدعى جوم بايانغ وقد قابلتها في معهد الاقليات القومية . ويمكن اعتبارها نموذجاً لسكان التيبت بعينيها العسليتين ووجنتيها البارزتين وشفتيها الممتلئتين .

قالت لي : « لقد كان لقدوم جيش التحرير الشعبي وقع حسن في نفوسنا اذ لاحظنا ما طرأ من تغير على رجال شان كاي شيك الذين تحولوا فجأة الى اشخاص مهذبين ولطيفين ، بمجرد اقتراب الجيش الشعبي . ولما وصل هذا الجيش استسلموا له باعداد كبيرة » .

واسترسلت في كلامها قائلة : «كنت اشعر وانا أعمل مع جيش التحرير الشعبي بانني اكتشف حياة جديدة . لأن الجنود كانوا يعاملون الجميع معاملة الند للند ، وقد انيط بي فيما بعد امر تنظيم التقليات العسكرية .

كان جيش شان كاي شيك يسخر الناس اما الجيش

الشعبي فكان يدفع اجور النقل . الا ان التنظيم العـام للنقليات كان يتأثر بقاعدة قديمة تقتضي ان لا تتجاوز حيوانات النقل حدود كل قبيلة فكنا نضطر مراراً الى تبديلها . وتكفل المال في هذه المرة ايضاً بتحطيم قاعدة كان يخيل انها راسخة الى الابد . اذ تعهد الجيش الشعبي بالتعويض عن كل حيوان يفقد اثناء الطريق كما نظمت عقود للمساعدة المتبادلة بين مختلف الملاكين هدفها تحديد اثمان الحيوانات من جهة وحقوق المرعى من جهة اخرى. »

ثم سألت جوم بايانغ عن وضع اسرتها الاجتماعي فاجابت :

— ان اسرتي من قبيلة ديه جيه ونحن من الارقاء الزراعيين التابعين لرئيسة هذه القبيلة . ولا يمكننا مبارحة المنطقة الا باذن منها . كما ينبغي لنا ان نقـدم لها بعض الخدمات بالاضافة الى كميات معينة من الشعير والسمن .

— ماذا يحدث لو انـكم لم تتمكنوا من تأمـين الكمية المطلوبة ؟

— نتعرض للسجن واحياناً للجلد . الا ان هذا النوع من العقاب توقف منذ قدوم جيش التحرير الشعبـي .

ثم سألتها عن كيفية تطبيق السخرة الـ « أولا » فأجابت :

— نحن اليوم معفيون من السخرة تجاه الموظفين والرجال الرسميين . أما النبلاء فلا يزال لهم حق السخرة الا انهم اصبحوا اكثر تفهماً من ذي قبـل . وان عائلتي تقوم

بجمع الاعشاب للحرق دون مقابل الا اننا لم نعد ندفع سوى نصف الضرائب السابقة كما لم نعد معرضين للسجن اذا تأخرنا عن الدفع .

وحدثتني ايضاً عن اخيها الذي لبس مسوح الرهبان ثم رغب في الخروج من الرهبنة ومبارحة المعبد بقصد الزواج؛ ولما كان الزواج محرماً على الرهبان فقد اضطرت العائلة الى تقديم تعويضات باهظة جداً لاخراجه . فقد تعهدت من جهة باستبداله بشقيق صغير عمره سنة واحدة كما وعد الاخ الاكبر بتقديم خدمات مجانية طيلة حياته . ولما قلت لها متسائلاً : ان هذا الثمن باهظ جداً . أجابت : كل شيء يتبدل مع الزمن . الم اكن منذ خمس سنوات فلاحة معدمة جاهلة ، وهأنذا اليوم طالبة جامعية اعد نفسي للعمل في الادارة الحكومية .

لم يكن حديثي مع هذه الشابة ليبارح مخيلتي ونحن نهبط من شولا متجهين نحو المقر العام لقبيلة ديه جيه حيث تقيم الرئيسة .

يضم المقر العام المعبد والقصر الاقطاعي والقرية التي بنيت سقوف منازلها من القرميد . وتشتهر هذه الحاضرة بمطبعتها التي تحتوي الحروف الخشبية القديمة لأهم النصوص البوذية . وكل من يريد الحصول على نسخ امينة من هذه النصوص يتوجه عادة الى هذه المطبعة . ففي المبنى الاساسي من المعبد تصطف على رفوف عديدة اكثر من

مليون لوحة مصنوعة من الخشب القاسي عمر معظمها اكثر من خمسة قرون . ان اثمن النصوص واكملها هي وصايا بوذا العشر المسماة « كانغيور » والتعليقات التفسيرية المسماة « تانغيور » . وتضم المجموعة الاولى ١٠٨ اجزاء والمجموعة الثانية ٢٠٠ جزء .

وهذه الكتب النادرة لا تُقرأ عادة لان قيمتها كامنة في ذاتها كما انها تستخدم في تغطية جدران المعابد والاضرحة فقبور الدالاي لامات الراحلين مملوءة بهذه المؤلفات التي تشكل غطاءً عازلاً سماكته قدمين فيه كل المعرفة اللازمة للانسان بحسب التعاليم اللاموية . وتنتقل ملكية هذه المطبعة التي تدر ارباحاً طائلة عن طريق الوراثة . والمالكة الحالية هي رئيسة القبيلة .

استقبلتني هذه الرئيسة في قصرها في حفاوة تامة بحضور اثنين من مستشاريها . كانت رفيعة العود ممشوقة القد تنم طلعتها عن امرأة اعتادت ان تأمر فتطاع . وقد طوفنا في بعض ارجاء القصر الى ان وصلنا الى قاعة الاستقبال حيث رأيت فوق كرسي العرش صور ماوتسي تونغ والدالاي لاما . وكان في القاعة منضدة طويلة منخفضة ومن حولها مقاعد عديدة متدرجة العلو على غرار التسلسل القائم بين المستشارين . ولما كانت هذه المقابلة شبه رسمية فقد احتلت الرئيسة تواضعاً منها اخفض المقاعد وجعلتني اجلس قبالتها على اعلى مقعد . اما مستشاروها فظلوا واقفين خلال مدة

المقابلة .

قالت لي الرئيسة انها قبلت على مضض القيام بمهام الوصاية بعد وفاة زوجها ريثما يبلغ ولدها سن الرشد . كما انبأتني ان المعابد والاغنياء من المدنيين هم اهم زبائن المطبعة . ويستلم هؤلاء عادة نسخهم بطريق الدور لان المطبعة لا تطبع سوى كميات محدودة نظراً الى قدم الحروف وقيمتها التاريخية . وتأتينا احياناً طلبات من الخارج لان كل خبراء النصوص البوذية والتيبتية يقصدون مطبعتنا .

ثم حدثتني عن طبيعة السلطة والحكم على صعيد قبيلتها البالغ عددها ٧٠٠،٠٠٠ نسمة ، فقالت : يوجد تحت امرتي ثلاثون من رؤساء الفروع يحكمون بدورهم رؤساء آخرين اقل في الاهمية . وانني أقوم بانتقاء اربعة من اهم هؤلاء الثلاثين لينهضوا باعباء الوزارة واستدعيهم جميعاً لاتباحث معهم في تعيين احد الوزراء او للحصول على موافقة المعبد كما أعنى بدراسة المسائل الهامة مع وزرائي وخاصة حل الخلافات . ولئن كانت الاختصاصات بين الوزراء غير موزعة توزيعاً دقيقاً الا ان هناك نوعاً من الاختصاص يستدعيه تصريف الاعمال اليومية العادية .

وانتقلت بعدئذ الى الحديث عن الوضع الاقتصادي العام فقالت : لا شك في اننا قد دخلنا عهداً من الرخاء والبحبوحة منذ تحرير التيبت وبناء الطريق الذي ساعد على

ازدهار التجارة . فسألتها عن طبيعـــة النشاط التجاري فأجابت : ان سيوفنا وخناجرنا ونصالنا مشهورة في جميع ارجاء البلاد : وصناعة الفضة في منطقتنا راقية جداً كما ان حيازة الحروف القديمة محصورة بمطبعتنا ؛ ناهيك عن ثرواتنا النباتية والحيوانية .

الفصل الخامس

في بلاد التيبت

كان علينا ان نعبر ثلاث سلاسل جبلية شاهقة ، كي نصل الى مدينة (كامدو) . وقد سرنا خلال ثلاثين ميلاً في طريق يبلغ ارتفاعه ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر ، كنت أشعر وكأن حملاً ضخماً ثقيلا ينقض على صدري فيكاد يخنق انفاسي . وحين وصلنا الى المدينة خيل الي لحظة اني سأفقد وعيي ، فقد كان رأسي يدور بسرعة مخيفة من شدة التعب والانهاك .

(كامدو) هي عاصمة منطقة (كام) التي تقع شرقي بلاد التيبت ، ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . أما المقاطعتان الاخريسان فهما مقاطعة (أو) وتتبع سلطة الدالاي لاما ومقاطعة (تسانغ) التي تتبع حكم البانشن لاما، باستثناء بعض الرهبان ، يحمل الرجال جميعاً صغارهم

وكبارهم سكاكين ومدى من جنوبهم ، وكثيراً ما نرى بعضهم يتجولون في الطرقات حاملين سيوفهم ، كما يحمل البعض الآخر بنادق قديمة اكل الدهر عليها وشرب . ومن النادر في مدينة (كامدو) ان تجد عائلة لا تملك نوعاً من الاسلحة النارية .

تعد (كامدو) بحق مدينة المتناقضات والمفارقـــات الغريبة ، فهي مدينة قديمة مليئة بالمظاهر الحديثة والمشاريع الجديدة ، او هي اذا اردنا مدينة حديثة تكثر فيها آثار العصور الغابرة . ولم يمض بعد وقت طويل ، حين كانت الاغلبية الساحقة من الفلاحين وبقية افراد القبيلة ، يعبأون من قبـــل رئيس القبيلة في جيوش ويزجون في حروب طويلة منهكة مع القبائل الاخرى . وكثيراً ما كانت هذه الحروب تؤدي الى ابادة جماعات بأكملها . امـــا الآن فان رؤساء القبائل تنازلوا عن هذا الامتياز ، ولم يعد في وسعهم اصدار احكام تعسفية وايقاع عقوبات وحشية وفقاً لمشيئتهم ، كبتر ايدي وأرجل الفلاحين المارين وقلع عيونهم ...

ان كامدو بلد عجيبة حقاً ، فبينما نصادف في جانب الطريق قوافل طويلة من البغال ، واجراس ترن في عنقها ، تقع انظارنا في الطرف الاخر الذي لا يبعد أكثر مــن عشرة أمتار ، على أكبر ورشة لتصليح الطرق حيث لا تنقطع فيها السيارات التي تقصدها لتفريغ حمولتها .

وهنالك مشهد آخر مألوف من مشاهـد المدينة يلفت الانظار ويثير الاعجاب ، ويمثل جماعة من النساء العاريات حتى بطونهن ، يدفئن أجسامهن تحت أشعة الشمس ، على اسطحة المنازل ، ويلوحن بين الحين والآخر بقبضات ايديهن ، مهددات متوعسدات نحو بعض الغلمان الذين يتسلون بمداعبتهن بواسطة بنادق تعمل على الهواء المضغوط. ان غرابة (كامدو) تبهر انظار الاجنبي لدرجة لا يستطيع منها ملاحظة بعض الاشياء المثيرة للدهشة . ويجب عـلى الزائر ان يبذل بعض الجهد كي يلمح في دكاكين هذه المدينة ، وحيث كانت العجلات معدومة فيها منذ بضع سنوات ، دراجـات من مصدر تشيكوسلوفاكي ، أو انكليزي ، أو الماني .

يمكننا القول من عدة وجوه ان مدينة (كامدو) . تقوم بدور طليعي ، نموذجي بالنسبة الى تيبت المستقبل . ففي بدء عام ١٩٥١ ، قبل اجراء المفاوضات بين الدالاي لاما وحكومة بكين ، تألفت في (كامدو) لجنة تحرير مدينة كامدو ، التي اصبحت بعد ذلك أكبر هيئه تنفيذية في مقاطعة (كام) ، ترتبط مباشرة (ببكين) . وكان أول عمل قامت به هذه الهيئة ، الغـاء الـ « أولا » او (نظام السخرة) ، كما حرمت تحريماً باتـاً حروب العشائر ، واخذت تتدخل في الخلافات القبلية لتعمل على تصفيتها بطريقة سلمية . اما الحروب الجديدة فالقـانون

يعاقب المسؤول عنها عقوبات صارمة .

وكانت الديون تشكل على الدوام اخطر متاعب الفلاح التيبتي وشغله الشاغل اذ كان من الممكن ، نتيجة لرداءة الموسم ، ان تتراكم عليه الديون الثقيلة بشكل لا يستطيع التخلص منها الى الابد . ومن الغريب ان الرهبان كانوا يحتكرون عمليات اقراض الفلاحين ، ويستوفون عن هذه القروض فائدة فاحشة تعادل ٢٠ ٪ تقريبـــاً لكل فصل زراعي ، أي لستة شهور . أما في الوقت الحـــاضر ، فان البنك الشعبي يتكفل بمنح القروض الى الفلاحين ، كما ان السلطات المحلية تقدم اليهم مختلف انواع البذار على شكل سلف موسمية ..

وقد تابعت الحكومة المركزية تنفيذ برنامجها في تطوير المنطقة اقتصادياً واجتماعياً ، فوزعت مجاناً ما يقرب من ٦٠,٠٠٠ اداة حديدية ،وهذا وهذا الرقم يشكل بحد ذاته هبة كبيرة اذا اخذنا بعين الاعتبار ان عدد سكان المنطقة يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وان نصف هذا العـــدد فقط يعمل في ميدان الزراعة ، فيكون نصيب كل عائلة اداة واحدة على الاقل . كما ازدهرت بنفس الوقت التجـــارة في تلك المنطقة ازدهاراً كبيراً اثر عودة المواصلات مع لاهاسا ومع بكين ، فاصبح عدد المخازن التجارية عـــام ١٩٥٣ يعادل سبعة أضعاف عددها تقريباً قبل فتح الطريق الجديد .

ومن الامور المألوفة في مدينة (كامدو) ان نرى جماعة من الرهبان يقصدون المستوصف التابع لمستشفى الشعب ، لفرض المعالجة . وهذا هو أول مستشفى حديث شيد في التيبت ، وقد اسس عام ١٩٥٢ ، واشرف عليه مائة دكتور ومساعد طبي ارسلتهم حكومة بكين لهذا الغرض .

وقد امتنع المرضى بادىء ذي بدء عن زيارة المستشفى، لان أغلبية التيبتيين يشتركون في الاعتقاد ، بان الامراض وحتى الطوارىء ، لا تحدث بشكل طبيعي وانما هي من قبل بعض الارواح الشريرة . والعلاج الوحيد للمرض في نظرهم هو الصلوات والدعاء بالشفاء ، بعد دفع الاتعاب الى الرهبان بالطبع ! . اما العدد الصغير من الرهبان — الاطباء ، فانهم لا يزاولون مهنتهم الا لصالح الاغنياء وبقية رجال الدين .

كنت أشرت في سياق حديثي الى قصة شفاء احد البوذيين الاحياء في مدينة (كانز) ، وكيف أهدى رجال المعبد وساماً الى أطباء المستشفى اعترافاً بالجميل ، بينما كان شعب (كانز) يردد هذه القصة في كل مكان. وقد تناقلتها الالسن من فم الى فم حتى وصلت الى مسامع أهالي (كامدو) . والغريب ان رهبان المدينة كانوا أول من ضرب المثل ، فاخذوا يترددون على المستشفى ، ثم حذا بقية السكان حذوهم :

وذات يوم اتيح لي أن اراقب احد أطباء المستشفى وهو يفحص مريضاً بداء الدود . وقد لاحظت بدهشة أن يد الطبيب كانت تعج بالقمل أثنـاء ذلك دون ان يبدو عليه أي اكتراث ودون ان يحاول التخلص منه . لكنه أسر في أذني قائلا فيا بعـد : « نحن معرضون لفقدان ثقة المرضى اذا اظهرنا اشمئزازنا من هذه المناظر ، فالتيبتيون يكنون احتراماً دينياً للقمل ! » .

وتذكرني هذه الحادثة بمناقشة طريفة جرت في يوم من الايام بين المصلح التيبتي الكبير (تسونغ كابا) وبين زعيم اللامويين المناهضين للاصلاح . كان (تسونغ كابا) ينصت بدون اهتمام الى دفاع خصمه عن التقاليد الدينية البالية ، حين قاطعه فجأة قائلاً :

ـ قف ! يا لك من رجل قاس ، اترك هذه القملة التي تحاول سحقها بين اصابعك . اني أسمع من مكاني هنا صيحاتها وقلبي يتمزق من الألم والحزن ! .

وقد اعترف خصم (تسونغ) اثر ذلك بهزيمته ، اذ كان فعلاً يهم بسحق القملة اثناء حديثه .

ومع ذلك فان السلطات تسعى جاهدة للدعاية في سبيل تحسين المستوى الصحي لافراد الشعب ، لكن هذه الدعاية تأخذ شكل التريث والحذر لئلا تصطدم بمعتقدات وخرافات الشعب التيبتي . أما في مضمار الدعاية للتطعيم الوقـائي فالتوصل الى نتيجة يبدو اشد صعوبة ، لكن السلطات لا

تفقد الامل ، وقد درج (الهان) عـــلى القول بشأن التيبت : « انهم يفهمون ببطء ... ولكنهم سيفهمون ! »

تقع مدينة (كامدو) في قطر حوض محـــاط بجبال تمده عـــلى الدوام بالغيوم المحملة بالامطار ، ولذلك لم أشعر بالحزن وأنا اغادرها خاصة وان المرحـــلة القادمة ستكون لاهاسا العاصمة . مررنا عـــلى الجسر الفولاذي الجديد، وخلفنا وراءنا قافلة من ذوات الوزن الثقيل تتجه هي ايضاً نحو لاهاسا التي لم تعد سوى على بعد خمسة ايام . وعلى مسافة خمسين مـــتراً من الجسر الفولاذي ، لمحت قافلة من (اليان) تتقدم بحذر على الجسر القديم المبني من الخشب والحجر . ان الرحلة الى لاهاسا بالنسبة لهؤلاء ستدوم شهرين او ثلاثة اشهر ! ..

الفصل السادس

فوق أعلى طريق في الدنيا

أخذنا نجد السير فوق أعلى طريق في العالم ، طريق يا آن الى لاهاسا ، هـذا الطريق الذي كان الخبراء لا يتوقعون انجازه قبل مرور مائة عام !

بعد ان اجتزنا (دتزامو) وهي مدينة حديثة مبنية في قلب غابة (بري) الكثيفة ، لمحت فجأة في وسط أحد الانهار جسماً بشرياً عارياً وبدون حياة ، ممدداً بين صخرتين كبيرتين . كان هذا ما يسمونه بعملية « الدفن المائي » وفقاً لتقليد مألوف في التيبت .

والواقع ان الديانة اللاموية تدعي بان جسم الانسان يجب ان يعود بعد موته الى أحـد العناصر الاربعة التي يتألف منها : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب !

فاما الدفن الناري فانـه يكلف كثيراً بالنظر لغلاء المحروقات واحتراقها يبطء عند اجراء عملية الدفن : كما

ان الدفن الكلاسيكي غير عملي مطلقاً ، لأن ارض التيبت تكون في أغلب الاحيان جليدية . يبقى الماء والهواء . وانا أنصح زائري التيبت ألاّ يشربوا من مـاء الساقية الصافي الا بعد تعريضه للغليان . أما الجنازات الهوائية فانها تجري بكل بساطة : تقطع الجثة الى عدة أجزاء ثم تلقى في الخلاء طعاماً للغربان والصقور !

شاهدنا عند اقترابنا من لاهاسا بعض العمال التيبتيين يقومون بتوسيع الطريق . وكما قلنا سابقاً فان عادة دفع الاجور لم تكن معروفة في بلاد التيبت ، اذ كان العمل يعتبر دائماً إلزاماً يجب على الطبقة العاملة الوفاء به مجاناً في خدمة النبلاء ورجال الكهنوت .

ان الفرق بين تصرف عامل الطريق ، والرقيق العادي يلفت النظر ، فبينما يسلم عليك الرقيق بخنوع وذلة باسطاً نحوك راحتي الكفين ، يستقبلك عامـل الطريق بدون تكلف ضارباً يديه ببعضها البعض وهو يصيح بسرور : « يامو — يامو » أي : طيب — طيب !

الفصل السابع

اول لقاء مع المدينة المقدسة

يمهد للوصول الى لاهاسا من جهة الشرق مشهد رائع يفوق بجماله كل ما كشفت لنا عنه بلاد التيبت حتى الآن. فأنت لا ترى على طول ستين ميلاً سوى الوديان المتلألئة تتناثر فيها الازهار وتغرد فيها الطيور ، وحقول القمح والشعير الذهبية والوردية . وكأن هذا التزيين السحري ، يريد منـــا أن نستعد للقاء مكان تتصف عظمته بالغرابة والندرة .

كنت أحاول دون جدوى أن أشاهد من بعيد المدينة المحرمة ، فقد كانت هنالك غيمة سوداء تحجبها عـــن الافق ، ولكن أشعة الشمس مالبثت أن اخترقتها وأضاءت الوادي بأكمله ؛ مزيحة الستار عن لاهاسا المدينة الخيالية. وظهر أمامنا من بعيد قصر بوتالا بكل روعته وجماله تنساب

عليه الانوار ، وكأنه يريد أن يكشف جمال وروعة الجبال المجاورة .

قبل أن أصف مدينة لاهاسا التاريخية لا بد لي من أن اورد موجزاً لتاريخ التيبت ، ونظام الحكم فيها ، الا أنه ليس للتيبت تاريخ مكتوب ونحن نعرف الشيء القليل عن الحوادث السابقة للقرن السابع .

تقول الاسطورة ان مهد البشرية يوجد في التيبت وهذا الاعتقاد لا يبعد كثيراً عن الفرضيات العلمية . فوفقاً للتقاليد لم يكن يوجد في بدء العالم سوى الجبال والمحيطات والحيوانات المتوحشة ثم انحسرت المياه شيئاً فشيئاً وظهرت الارض . أما الانسان فقد ولد من اتحاد القرد مع احدى الآلهات . كان القرد يعد نفسه كي يصبح (بوذا) فانسحب الى صومعة ليفكر ويتأمل . وهناك التقى بإلهة انثى من الجبل . فطلب المشورة من قصر (بوتالا) المقدس ، الذي سمح له بالزواج منها . وقد نتج عن هذا الزواج ثلاثة قرود ما لبثوا أن أصبحوا بعد ثلاث سنوات خمسمائة . كانوا يتكاثرون بسرعة حتى أن الغابة لم تعد تكفي لسد قوتهم . حينئذ عاد الأب الى (بوتالا) حيث اعطي شعيراً وفاصوليا وبذوراً أخرى ، قام القرود بزرعها . وفي نهاية الأمر تحول القرود الى هيئة البشر !

وتقول اسطورة أخرى أن التيبتيين ينحدرون من فصيلة أكلة لحوم البشر وشاربي الدماء . امـا الاسطورة

الثالثة فتدعي بكل بساطة انهم ينحدرون من الجنوب .

مهما يكن الأمر فان كل بحث تاريخي جدي حول التيبت يتوقف عند الملك (سونفتسان غامبو) ، الذي ولد في مستهل القرن السابع . وقد حاول هذا الملك أن يجمع تحت سيطرته جميع قبائل التيبت التي كانت مبعثرة في صحارى التيبت الواسعة ، فوفق الى ذلك بعد حروب طويلة.

تصف نصوص سلالة (تانغ) الملك (سونفتسان غامبو) بأنه كان رجلا قاسياً عنيفاً ولكنه ديمقراطي النزعة ، لأنه كان يجمع الشعب ويستشيره في شؤون المملكة قبل أن يتخذ قراراته .

كان هذا الملك وفقاً لعادات عصره يحترم امه وبقية النساء ، كما كان يحتقر آباه وجميع الرجال المسنين . ونحن لا نزال نشاهد في التيبت حتى اليوم ، آثار هذا الاحترام والتقديس نحو النساء ، اذ ان التيبت هي احدى بلاد العالم التي لا تزال عادة تعدد الازواج سائدة فيها . وكان من جملة تقاليد عصر الملك (سونفتسان غامبو) أن الموت في الحرب مشرف ، أما الموت على سرير المرض فهو محتقر .

ولم يكن للديانة البوذية قبل حكم (سونفتسان غامبو) سوى عدد قليل من الانصار ، ولكن حين اجتاح هذا الاخير بورما الشمالية ، والصين الغربية ، حصل على يد الاميرة (وينغ شانغ) وتزوج بنفس الوقت أميرة من (نيبال)

وكلاهما بوذيتان . ويقال انهما استطاعتا بتأثير جمالها وذكائها حمله على اعتناق البوذية التي أصبحت الديانة الرسمية للتيبت.

أما الشخصية الثانية الشهيرة في تاريخ التيبت ، فهو المصلح الكبير (تسونغ كابا) ، ابن فلاح ، ولد عام ١٣٥٨ بعد مرور قرن تقريباً على استيلاء طائفة (ساغيا) على السلطة في التيبت بمساعي سلالة (يوان) المنغولية . وكان الشكل التيبتي للديانة البوذية قد اصبح مشوهاً عن الاصل نتيجة لتفاعله بمذهب (بون) القديم الذي يشبه مذاهب تأليه الطبيعة .

وقد ادخل (تسونغ كابا) على الديانة البوذية بعض التعاليم التي تشبه الى حد بعيد التعاليم الكاثوليكية . فدعا الى العزوبية والعزلة والتأمل الروحي بالنسبة للرهبان ، وادخل في الطقوس الدينية ، البركات ، والماء المقدس واستعمال المسابح ، وارتداء الازياء الخاصة بمناسبة الاحتفالات الدينية .

يضع اعضاء الطائفة الجديدة المسماة (جيلوغبا) أي : (هؤلاء الذين يسيرون في طريق الفضيلة) على رؤوسهم قبعات صفر لتمييز أنفسهم عن الرهبان الآخرين ذوي القبعات الحمر . وقد امتثل أعضاء هذه الطائفة لتعاليم رئيسهم فحرموا على انفسهم الزواج ومعاقرة الخمر .

انتشرت تعاليم الطائفة الصفراء انتشاراً كبيراً ، واصبحت تتمتع بنفوذ ضخم في التيبت على الرغم من أن العزوبية

وضعت امامها مشكلة معقدة ، هي كيف يجري اختيار ورثة اللامات . وقد حلت هذه المشكلة بمنتهى البراعة : عند وفاة اللاما الاكبر رئيس الطائفة ، يفترض أن روحه ستنتقل آلياً الى جسم طفل فتتقمصه ، ليصبح اللاما الكبير الجديد ، وهذا التقمص المستمر الذي لا حدود له يمثل اللاما الاكبر الابدي ، الامر الذي ارضى الجميع !

وفي عهد التقمص الخامس — الخامس الكبير كما يسمونه — وصلت الطائفة الصفراء الى درجة من القوة والسطوة جعل في وسعها ان تطرح على بساط البحث شرعية الافضلية المعطاة للطائفة المنافسة لها ؛ طائفة (ساغيا) فاستعان اتباع (تسونغ كابا) بـ (جوش خان) من السلالة المنغولية ، الذي قضى على نفوذ الدين القديم واغتنم بنفس الوقت الفرصة كي يضم التيبت الى الصين ، ثم سلم زمام السلطة الزمنية والروحية الى الطائفة الصفراء ومنح الخامس الاكبر لقب الدالاي لاما . وكلمة (دالاي) هي ترجمة حرفية عن اللغة المنغولية ومعناها : « واسع كالمحيط » .

ادخل الخامس الاكبر عدداً من التنظيمات الجديدة في التيبت كان في جملتها أن وحياً الهياً هبط عليه ليخبره بأن روح الاله (شينرزي) حامي التيبت ؛ تقمصت جسده وهكذا اصبح اللاما الاكبر اول (اله — ملك) للتيبت وهبط عليه الوحي مرة ثانية يعلمه ان وصيه المسن تتجسد فيه روح الاله (اوبام) تتمة الاله (شينرزي) ، وهكـذا

اصبح لقب ورثة الوصي عدا الدلاي لاما ؛ البانشن لاما ، ومنذ ذلك الوقت سكنوا في أحد معابد مدينة (شيغازي).

كانت العلاقات الروحية بين اللاموين الأكبرين غير محدودة وغامضة ؛ حتى بالنسبة للخبراء ، اذ أن (شينرزي) و (اوبام) همـا مظهران متكاملان لنفس الاله . ولذلك فان تقمصهما متساو من وجهة نظر الدين . ومع ذلك خصت التقاليد (اوبام) بالامور الروحيـة و (شينرزي) بالامور الزمنية .

والواقع ان الدالاي لاما كان يحـكم ١٠٩ مناطق بينما يحكم البانشن لاما تسع مناطق فقط . أي أن الدالاي لاما يتمتع بكافة صلاحيات السلطة الزمنية ، اما في الميـدان الروحي فهما متعادلان من حيث القوة . وقد جرت العادة ان يقوم اكبرهما سناً بدور القيادة والوصاية على الاصغر كما أن التيبتيين لا يميزون مطلقاً بين الحبرين الاعظمين ، فيطلقون عليهما لقباً جماعياً هو : « الأب والابن » .

وقد عمت التيبت طريقة الوراثة بالتقمص ، حيث يوجد فيها حالياً على وجه التقريب الف تقمص من الكبـار والصغار يدعون : البرد الاحياء .

حدثت خلافات خطـيرة في التيبت بين ورثة الخامس الاكبر بعد وفاته ، أدت الى تدخـل المنغول الذين اجتاحوا التيبت واحتلوا لاهاسا . فاستنجـد التيبتيون بامبراطور الصين (كانغ هي) الذي أرسل ١٠٫٠٠٠

جندي لنصرتهم ، فحرر المدينة من الاحتلال المنغولي وأعاد ورثة الدالاي لاما الى الحكم . ولكي يحول دون عودة الاضطرابات والخلافات أحدث منصب نائب للملك او (امبان) يشغله ممثل صيني يتمتع بسلطات واسعة . وقد استمر نائب الملك يقيم في لاهاسا حتى مستهل القرن العشرين .

وفي سنة ١٧٤٩ اندلعت نار الثورة في لاهاسا حين اعدم نائب الملك الوصي التيبتي ، فأرسل الامبراطور الصيني (شين لونغ) حملة تأديبية . الغى بنتيجتها نظام الحكم المزدوج بين الدالاي لاما والبانشن لاما وشكل مجلساً مؤلفاً من اربعة اشخاص يدعى (كاشانغ) يقوم بدور السلطة التنفيذية . وبعد مرور اربعين سنة عاد (شين لونغ) وقرر انتخاب اللاما الأكبر بطريقة الاقتراع بحضور نائب الملك ال (امبان) فاذا وقع الاختيار على الدالاي لاما فان البانشن هو الذي يحتل منصبه و العكس بالعكس !

حتى تاريخ غزو التيبت من قبل الانكليز في بدء هذا القرن ، بقيت العلاقات بين بكين ولاهاسا دون أي تغيير يذكر .

الفصل الثامن

مجد لاهاسا

مهما كانت تصورات وأحلام المسافر الذي يعد نفسه لمشاهدة لاهاسا فلن يصاب بالخيبة مطلقاً . وتكفي مشاهدة قصر (بوتالا) كي تنشغل المخيلة بـه اسابيع عديدة . غير ان لاهاسا تحوي روائع أخرى : اكبر معبد في الدنيا (الدوبنغ) معبد (غوكانغ) الذي شيد قبل ١٣٠٠ سنة ؛ مدرسة الطب للرهبان على قمة الهضبة الحديدية ، وعشرات من الاديرة والمعابد والهياكل التي جعلت من المدينة مركز الجذب بالنسبة لآلاف الحجاج الذين يكرسون احياناً حياتهم بأكملها وجميع ما يملكون كي يصلوا اليها ...

يوجد في لاهاسا ثلاث حلقات مقدسة : الحلقة الداخلية التي تطوق صورة(بوذا) المقدسة في معبد (غوكانغ) ثم تليها حلقة (الباركور) التي تمر في الحي التجاري

للمدينة وتدور حول الردهة الخارجية لمعبد (غوكانغ) ، والحلقة الثالثة أخيراً هي عبارة عن طريق يدعى (لنفكور) يبلغ طولة ثمانية كيلومترات ويدور حول البلدة . ويعتقد التيبتيون ان التجول ضمن هـذه الحلقات يحظى برضاء الآلهة ، شريطة ان يسير باتجاه عقارب الساعة . كما يحظى المرء برضاء اضافي من الالهة اذا دار في هـذه المماشي المقدسة وهو راكع ! يجري هذا التمرين الصعب بالانبطاح على طول الجسم مع مد اليدين الى الامام ثم النهوض بعد ذلك مع وضع القدمين في مكان اليدين سابقاً وهلم جرا .. ويجب على الحاج ان يكرر هذه العملية خمسة الاف مرة على الاقل كي يتم دورة (لنفكور) .

ان المؤمنين الذين يتمون هـذه العملية عـدة مرات يحصلون على تقدير كبير من الآلهة يفيدهم في تقمصهم المقبل . أما الذي أسعده الحظ بالموت في ممشى (لنفكور) — حتى ولو كان وثنياً مثلي — فستغفر له جميع ذنوبه .

لقد شيدت مدينة لاهاسا قبل ان تختر لهـا الاجهزة الصحية الحديثة بزمن طويل . وفي هذا المضمار ، كما في غيره من الميادين ، بقيت الامور على حالها ، فهناك في الشوارع كميات من الاقذار المختلفة ذات الروائح الكريهة . وفي كل مكان تتعثر بكلاب ضالة تنام خلال النهار تحت الشمس بكل اطمئنان ، لان الدين يحرم إعدامها . اما في الليل فلا يفتأ المرء يسمع عواءها المزعج ، ومن وقت

لآخر ترتفع حشرجات طويلة مؤلمة لكلب التهمته بقية الكلاب . وكثيراً ما تشكل هذه الكلاب عصابات تهاجم الناس في مطلع الفجر . ولا شك انه من الخطورة بمكان التجول ليلاً في شوارع لاهاسا .

ان سكان لاهاسا مثلهم كمثل بقية سكان التيبت مولعون بالزهور ، فنوافذهم مزينة بمختلف أنواعها . ومما يلفت النظر في هذه المدينة ، نقص وسائل الراحة ، لكن هذه المساوىء تعوض بالروائع التي لا تشاهد سوى في هذه المدينة الوحيدة ، مركز الجذب الذي يستقطب حوله الزوار والرحالة من جميع انحاء العالم .

ومهما تجولت في شوارع لاهاسا فان عينك لا تني تتحول لتمتتع بجمال قصر (بوتالا) وبراعة بنائه وكتلته الضخمة المهيمنة . وقد شيد القصر وفقاً للفن المعماري التيبتي ، جدران مائلة نحو الداخل ، الابواب والنوافذ تضيق نحو الاعلى . ان صفاء هذه الخطوط الهرمية توهم بان القصر قد حفر في قلب الصخور نفسها .

والنتيجة تبهر الانظار ، فالبناء الضخم ينسجم مع الطبيعة المحيطة به لدرجة نشك في انه من صنع البشر ! وان المرء ليفهم بسهولة سر قناعة الحجاج البسطاء بان (البوتالا) من صنع الآلهة

يجب ان نتسلق حتى ارتفاع ٤٤٠ قدماً حتى نصل الى سقوف الذهب التي تغطي قبور (الدالاي لامات) .

وأول ما يصادفنا الباحة الداخلية الاولى الشديدة الاتساع ، ويسكن فيها الموظفون والخدم المدنيون ، ويسود فيهـا الازدحـام ، اطفال يلعبون ، وكلاب نائمة ، وأناس منهمكون في اعداد الطعام ، وآخرون يتخاصمون الخ ..

كما شاهدنا عـدداً كبيراً من النساء يصعدن السلالم حاملين على ظهورهن أوعية الماء لتحضير الشاي للرهبان وملء آلاف الاحواض المخصصة للآلهة . وقـد لاحظت ان التيبتيين يستعملون الماء نادراً للاغتسال على اختلاف طبقاتهم !

(البوتالا) هو بنفس الوقت مكان اقامـة الآله المتقمص في جسد الدالاي لاما وقبر (الاجساد القديمة). وهنالك قاعدة – خيل الي انها لا تطبق بحذافيرها – تحرم على النساء الدخول الى القصر بعد الظهر . ولا يسكن في القصر سوى الرهبان وحدهم ، وتقتصر مهمتهم عـلى صيانة آلاف المصابيح التي تعمل على الزبدة ، لأن استعمال المصابيح الكهربائية ممنوع في ردهة القصر . وقد طاف بي أحد الرهبان في انحاء القصر الواسع على ضوء قنديل نحاسي ، ذكرني بمصابيح العذارى العاقلات . وكانت تتصاعد من القبور والمعابد المظلمة همسات مختلفة تعكس أناشيد الرهبان الرتيبة ، وهي تختلط مع وقع الطبول .

يجب ان اعترف بانه يلزمنا عدة أسابيع كي نستطيع زيارة الكنوز التي تحويها غرف قصر (البوتالا) الالف .

وإحدى هذه الغرف تحتوي على صورة بالحجم الطبيعي للملك (سونغتسان غامبو) وزوجتيه .

وعلى نفس مستوى هـذا المعبد توجـد سكرتارية الدالاي لاما ، التي تحمل اسماً معبراً (بيلك تسانغ) أو « عشر الرسائل » . وقـد استطعت ان أميز في ركن مظلم من الـ (بيلك تسانغ) تمثالاً للخامس الأكبر الذي قيل بانه فتح فمه وتكلم في احد الايام ! وقـد تساءلت وانا أدور في غرف القصر ، ما هي قيمة هـذه الكنوز المكدسة فيه ، دون ان أحصل عـلى نتيجة ، لأن من المستحيل تقدير هذه الثروات المتراكمة منـذ قرون بـين جدران (البوتالا) الذي يحتوي بالاضافة الى ذلك ، على كنز اللاما الاكبر الخاص : متحف رائع من الاحجار الكريمة والتماثيل الذهبية والفضية وقطع البورسلين النادرة .

يحلو للدالاي لاما خلال فصل الشتاء ان يتنزه حول القبب البراقة ليستنشق الهواء . وانه لمنظر وحيد من نوعه ، واذا كان علي ان اختار مكاناً أمضي فيه بقية ايامي ، فسأختار سطح البوتالا العالي دون الخوف من ان يداهمني الملـل من التأمـل والتمتع بمنظر مدينة لاهاسا من هـذه النقطة المرتفعة .

ان الدخول الى مساكن الدالاي لاما محرم علي بصفتي وثنياً . وقد علمت انه لا يوجد في هذه المساكن ، على غرار بقية غرف القصر ، حمامات أو مصابيح كهربائية

أو اجهزة تدفئة . فعند مغيب الشمس لا يعكر سكون القصر الغارق في الظلمات سوى نداءات الحرس . أما بصيص المصابيح فهو مخصص لهؤلاء الذين يعكفون على النصوص القديمة جداً ، والتي تحتوي على خلاصة المعارف البشرية . وانا أرجح ان قليلاً من الاجانب يتقبلون استبدال حياة العمل بهذه الحياة الرتيبة حيث يختلط الترف ومتطلبات الاتيكيت مع واجبات الحرمان والعزوبية .

وعلى الرغم من ان (بوتالا) يبدو لأول وهلة اكثر تأثيراً ، فان معبد (غوكانغ) يشكل المركز الروحي للديانة اللاموية في التيبت . وهو يضم كنوزاً دينية لا تقدر قيمتها الروحية بثمن . وعلى مدخل باب المعبد شاهدنا راهباً يقف على الدوام ليحرسه . ويسمى المعبد « منزل المعلم » حيث توجد صورة (بوذا) الشاب التي جلبتها معها من الصين الاميرة (وينغ شانغ) في القرن السابع . وتشكل هذه القطعة الاثرية المقدسة مركز جذب بالنسبة لألوف الحجاج الذين يجتازون بعناء كبير الجبال المحيطة بلاهاسا .

في لاهاسا معبد آخر يضم بدوره صورة مقدسة شهيرة ايضاً . انها صورة حارسة الحكومة : الإلهة (باللدن لامو) وتمثلها ممتطية بغلاً ، وهي تلتهم مخ جمجمة بشرية . والطريف ان عدداً من التيبتيين يعتقدون ان الملكة فكتوريا كانت احدى تقمصات الالهة ، وانه ما

دامت الملكة حية فان الجيوش الانكليزية لن تجتاح التيبت ،
وبالفعل فان الجيوش الانكليزية لم تدخل التيبت إلا بعد
مرور ثلاث سنوات على وفاة الملكة فكتوريا .

يأوي الى هذا المعبد أعداد ضخمة من الفئران البنيّة
اللون ، لا تخاف الزوار لدرجة يمكن للمرء مداعبتها
دون ان تهرب . انها فئران مقدسة ، تجفف عند موتها
وتحول الى مسحوق يستخدم في صنع الادوية !

وقد لفت الدليل نظري الى انه اذا أرادت احدى
الفئران ان تمتص جزءاً من الشاي الذي اشربه فان هذا
يعد من قبيل الامور المستحبة في التيبت ، وكان من
حسن حظي ان هذا لم يحصل !

ومع ذلك حدث في احدى المناسبات ان سقطت ذبابة
في قدحي ، الامر الذي سبب لدى الحضور هيجاناً شديداً
لم يهدأ الا حين انتشلت الذبابة بواسطة قضيب ، ووضعت
تحت أشعة الشمس لتجف وتحيا من جديد . وبعد ذلك
دنا أحد الخدم فحمل كأسي بعيداً ، ثم عاد وقدمها اليّ
مرة ثانية .

الفصل التاسع

الكلب الذي اذنب

لم يسبق التيبيتيون باسطورتهم القائلة بأن القرد جسد الانسان ،العالم داروين فحسب بل سبقوا ايضاً باستور، باعتقادهم ان الامراض تنجم عن عفاريت صغيرة مؤذية وغير مرئية تعيش على المواد المتفسخة وتنتقل الى مهاجمة الانسان . وهم يعتقدون ان العالم مسكون بارواح شريرة تجلب التعاسة الى البشر وان من الضروري تهدئتها بكل الوسائل .

ان الرهبة من العفاريت والخوف من المصائب التي قد تفاجيء المرء خلال التقمصات اللامتناهية هما القوتان الحاسمتان اللتان تدفعان التيبتيين الى احترام التعاليم الدينية . فالمذهب اللاموي يقول بان الروح تتقمص بصورة دائمة اجساماً مختلفة الى ان تصبح جديرة بالدخول في النيرفانا بفضل

سيرها نحو الكمال . الا ان الروح التعيسة التي تولد من جديد في صورة اقل من السابقة تبقى محافظة على ملكات التفكير والتألم الانسانية .

قيض لي ذات يوم رؤية جماعة من الناس في مدينـــة لاهاسا وهم يراقبون كلباً يتقطع ألماً وهو يعاني سكرات الموت . لم يكن بالنسبة اليهم كلباً يموت بل روحاً يائسة لم تحترم الدين احتراماً كافياً في حياتها السابقة . ولم يخطر ببال احدهم ان يريحه بضربة سيف لان ذلك يعني التدخل في مشيئة الآلهة .

ان سلوك الناس في حياتهم السابقة يجعل منهم اشخاصاً أغنياء أو فقراء ، سايمين أو مرضى ، سادة او عبيداً . وان الورع والسخاء تجاه المعابد يكافآن بتقمص مقبل من مستوى أعلى .

هناك هوة سحيقة تفصل بين الكهان والمـــدنيين لأن الكهان يشكلون طبقة اسمى تنفرد باللامـــوية والاتصال بالذات الربانية . وحتى الكهان المنحدرون من وضع اجتماعي بسيط يتمتعون بحق الاحترام لانهم يعرفون خمس وسائل من أساس خمس عشرة وسيلة للوصول الى النيرفانا وذلك بالتحرر من ٨٤٠٠٠ شهوة انسانية . اما بوذا الاحياء فهم يعادلون شخصية المسيح بالنسبة الى الدين اللامـــــوي . والارواح المتحررة تبلغ الراحة الابدية وحق الدخول في العدم والتحرر من دوامة التناسخ في عالم الشقاء الارضي .

الا ان بوذا الاحياء يتخلون عن النيرفانا ليعودوا بين البشر ويساعدوهم على ايجاد الطريق الى بوذا . فاذا مات واحد من البوذا الاحياء ، أو بالاحرى حينما يموت جسده الذي هو بمثابة الوعاء لروحه ، فان هذه الروح تتقمص في طفل صغير يحمل علامات خاصة تُشعر بوجود بوذا الحي فيه . اما الدالاي والبانشن لاما فهما اهم البوذا الاحياء بصفتهما التقمص المزدوج للاله الحامي للتيبت .

وقد سألت الكاهن الاكثر اطلاعاً على المذهب اللاموي عما يجب على المؤمن عمله ليتخلص من الاخطار والآلام الارضية ويبلغ النيرفانا ، فأجاب :

على المؤمن العادي ان :

- يداوم على الصلاة قدر المستطاع .
- ويثق بجميع الآلهة .
- ويحترم الكتب المقدسة ويكيف حياته بمقتضى تعاليمها .
- ويؤمن بالكهان ويحترمهم بصفتهم خداماً للدين .
- ويقدم العون للكهان والهبات للمعابد .
- ويتجنب عمل الشر وقتل الكائنات الحية حتى ولو كانت ذبابة .
- ولا يلحق الاذى بأحد .
- ولا يقابل الشر بالشدة .
- ولا يفكر في الانتقام ؛

والدين اللاموي في التيبت يتعرف على الفرق التالية :
الفرقة الصفراء ، الفرقة الملونة ، الفرقة الحمراء ، الفرقة البيضاء .

وكل الفرق اللاموية تملك اراضي وتتعاطى التجارة :
أما اعمال الحقل فيقوم بها العبيد الملحقون بالمعابد . ولكل عائلة تقريباً نسيب من الكهان لذلك تكون العلاقات بين المؤمنين المدنيين والكهان وثيقة . ويجب دراسة النصوص المقدسة خلال سنين طويلة كيما يحصل احدهم على الترقية لذلك يقضي معظمهم حياته وهو يؤدي الخدمات .

الفصل العاشر

القانون والزواج

ان احدى التناقضات البارزة في النظام التيبتي ، تكمن في بذل العناية الكبرى ، لدوام سيطرة طبقة النبلاء الكهنوتية والمدنية ، والحرص بنفس الوقت على تقمص ارواح الدالاي والبانشن لامات في اجسام أطفال ينتمون الى الطبقات الدنيا . والحقيقة ان هذه هي الطريقة الأكثر مثالية ، للحيلولة دون اغتصاب الحكم من قبل عائلة تنتمي الى طبقة النبلاء ، وجعله وراثياً تحتكره لافرادها . وهي كذلك أحسن طريقة لتأمين دوام وسطوة رجال الدين .

إلا ان وجود طبقة نبلاء مدنية وراثية ، ضروري بالنسبة الى الرهبان العزب . انهم بحاجة لاختيار اعضائهم من بين النبلاء للمحافظة على بقاء السلطة في ايدي الطبقات الحاكمة . وينتج عن ذلك ان التحالف ضروري بين طبقتي النبلاء والمدنيين والدينيين ، حيث تسود مع ذلك سلطة

رجال الدين منذ ازدياد نفـوذ الطائفة الصفراء وتمركز بعض الرجال الاقوياء في المعابد .

لا يكاد يكتشف الدالاي لاما الجديد حتّى يصبح والده دوقاً ، وجميع افراد عائلته من النبلاء . وليس بصحيح ما يقال من ان التقمص الجديد يجب أن يكشف في لحظة موت الدالاي لاما القديم . نظرياً ، يحق للدالاي لاما ان يترك جسمه متى شـاء ، دون ان تكون هنالك حاجة لموته . فهو يستطيع بسبب تأثره من ذنوب الرجال ، ان يقضي بعض الوقت في الحقل المشرف قبـل ان يعود الى الارض . ومن المتفق عليه ، هو وجود فترة وصاية بين موت الدالاي لاما وتنصيب خلفه في سن الثامنة عشرة ، ويجب على هذا الاخير ان يصوم وان لا يشرب سوى الماء خلال اسبوع قبل موعد الاحتفال .

يستند نظام الحكم في التيبت على اتحاد رجال الدين مع طبقة النبلاء وهو نظام بسيط ليس فيه أي تعقيد ، ويشمل الحكومة التيبتية المحلية مقاطعة (او) ، ومساحتها كبيرة جداً ، أذ انها تتضمن ١٠٩ مناطق موضوعة مباشرة تحت سلطة الدالاي لاما . ويشرف هذا الاخـير بصفته رئيس الحكومة على هيئتين تنفيذيتين : الاولى دينية كهنوتية ؛ والاخرى تتألف من الرهبـان والنبلاء ، وهما « الييك تسانغ » و « الكامشاغ » . وتتألف الكامشاغ من ستة « كالون » ومهمتها الادارة والاشراف على القضايا المالية

والزراعية والضرائب ، والديون ، والبناء ، والتحقق من صحة الخطوط ، وهي بالاختصار تقوم بوظيفة هيئة ادارية عليا . أما البيك تسانغ (عش الرسائل) او السكرتارية فلا تضم سوى الرهبان ، يدخل في صلاحياتها تعيين جميع كبار الموظفين المدنيين والدينيين . وبالاضافة الى هذه الاختصاصات تحتفظ السكرتارية بختم الدالاي لاما . وهكذا فان الدالاي لاما يتمتع بسلطات لا حدود لها عملياً ، اذا كان يتحلى بالفطنة والدراية .

ان المركزية الحكومية معدومة عملياً في التيبت . والواقع ان الحكومة المركزية لم يكن لديها ما تعمله قبل عام ١٩٥١ فلم يكن هنالك مستشفيات أو طرق لصيانتها ، او أي خدمة اجتماعية يجب تأمينها . اما الموظفون فانهم يتقاضون رواتبهم بانفسهم اثناء تأدية عملهم . وتتبع القوانين العادات المحلية اكثر من انصياعها للقواعد الادارية الصادرة عن السلطة المركزية . أما أفراد الشعب فانهم يتبعون حاميهم — سواء كان نبيلاً او موظفاً او كهنوتاً — ويعاقبون من قبله .

وقد عنّ لي يوماً أن استفهم من بعض الناس بما فيهم « ميبون » رئيس البلدية عن قواعد الزواج في التيبت ، فلم يستطع احد منهم ان يشفي غليلي ، مما يدل على ان الزواج في التيبت يخضع للعرف والعادات التي تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية . فتعدد الازواج موجود في

كل مكان ، وكثيراً ما نرى امرأة تتزوج عدة أشقاء ، وهذه الطريقة تسود بصورة خاصة لدى الرعـاة وسكان الجبال لاسباب اقتصادية لانه اذا اضطر الجميع الى تقسيم القطيع فيا بينهم ، فسيكون من المستحيل على كل رجل أن يعيل امرأة وحـده ، ولذلك يلجأ الولد البكر الى الزواج من امرأة ، ثم يتقاسمها مع اخوته الذين يعيشون معـه .

ويحدث في بعض الاحيان أن يترك احد الاشقاء عائلته ويؤسس بيته الخاص بمعزل عن عائلته ، وفي هذه الحالة يتخلى عن جميع حقوقه على زوجة اخيه الأكبر ، وعلى الأولاد الذين انجبتهم منه ، وقد استطعت التأكد من ان هـذه الاتفاقات العائلية تجري بصورة حبية ، وبسهولة تامة .

اما عادة زواج رجل واحد من عـدة شقيقات فانها أقل انتشاراً ، وتصادف بصورة خاصة لدى الأسر النبيلة بهدف المحافظة على اموال العائلة . فمثلاً يتزوج رجل عدة أخوات من اسرة غنية لم ترزق اي ولد ذكر . وهـذا يختلف عن تعدد الزوجات لـدى المسلمين ، والصينيين القدامى .

حين يختار اولياء فتاة شابة تنتمي إلى الارستقراطية ، خطيباً لها ، يستشيرون قبل كل شيء الرهبان ليعرفوا اذا كان الأمر يبشر بالخير . في هـذه الحالة يتفق اعضاء

الاسرتين على الامور المالية ، ويرسل اهل الخطيب الهدايا من الطرفين ، فان هذا يعني أن الزواج قد تقرر .

في يوم الاحتفال بالعرس يذهب أصدقاء الزوج بدونه، ليأتوا بالزوجة التي تتبعهم على فرس انجبت مهراً . وعلى الزوجة عند وصولها الى منزل الخطيب ، ان تذرف بعض الدمعات ، كتعبير عن حزنها لترك بيت اهلها . ثم تصعد الفتاة الى الطابق الاول – بدون اهلها الذين لا يحضرون الاحتفال – حيث تنتظرها أم الخطيب التي تعطيها كمية من الحليب والزبدة لتجلب لها السعادة . وخلال جميع هذه المراحل تبقى الفتاة محجبة ، فلا يتبين ملامحها سوى اصدقائها وزوجها . وبعد بضعة ايام تجلس الزوجة الشابة في الدهليز بينما يكلف الزوج أحد اصدقائه المسنين بوضع مجوهرة على خيوله ، ومنذ هذه اللحظة يعتبر الزواج مستملكاً ، وتدوم الاحتفالات بعد ذلك اسبوعاً كاملاً .

وقد أصبح الزواج حالياً في لاهاسا العاصمة اكثر بساطة لكن الشكل القديم لا يزال معمولاً به في بقية انحاء التيبت . وتجري نفس المراسيم بالنسبة لزواج الرجل بعدة شقيقات ، وزواج المرأة بعدة اشقاء . وتعتبر المرأة التيبتية زواجها من عدة رجال شرفاً ورمزاً لسمعتها وقوتها .

لا يسجل في التيبت سوى زواج النبلاء ويجري التسجيل لدى دوائر الحكومة . أما الطلاق فهو مباح بل هو على

غاية من السهولة : ففي حالة اتفاق الطرفين على الطلاق، لا يبقى أمامها سوى تقسيم الأموال . ان اية امرأة تستطيع أن تطلب الطلاق ، فاذا وافق زوجها على ذلك توزع الاموال بينهما بالتساوي ، وفي حالة عدم موافقة الزوج لا يحق للمرأة الحصول على اي جزء من الاموال ولكنهـا حرة في أن تهجر زوجها متى شـاءت . كما ان الأولاد يوزعون بين الطرفين فيحتفظ الرجل بالذكور ، وتحتفظ الأم بالفتيات !

ان كل شيء يُحلّ بموجب التقاليد ، لعـدم وجود اي تشريع مكتوب . أما السلطات الحكومية فلا تتدخـل إلا في حالة عدم توصل الطرفين الى اتفاق حول توزيـع الاموال .

ويتم الزواج والطلاق دون ان يتدخـل في الأمر أي موظف عام .

الفصل الحادي عشر

المسرات في التيبت

تتميز الاسابيع التي تسبق وتلي اليوم الاول من تشرين الاول في لاهاسا بالالعاب العديدة والافراح السعيدة . لان العيد السنوي لتأسيس الجمهورية الصينية يقع في فترة النزهات التقليدية . واهل لاهاسا شديدو الولع بالنزهات حتى ان لهم عيداً رسمياً للنزهة بغض النظر عن النزهات الخاصة التي يقومون بها على ضفاف النهر . وخلال مدة قد تصل الى اسابيع تنصب الاسر خيامها لتتفرغ للسباحة والرقص والغناء . واكثر اللعبات انتشاراً بين الفتيات هي محاولة حذر يوم الزفاف . فيجلسن في شكل حلقة وتضع كل واحدة منهن غرضاً تحت قطعة من القماش ثم يغنين جميعاً أغنية موجهة الى صاحبة الغرض الذي يسحب بطريق الصدفة .

أما الغلمان فيتسلون بطائرات من الورق مربعة الشكل ويجرون فيما بينهم مباريات تنمي فيهم روح المنافسة : اما قاعدة اللعب فتقتضي ان يحاول كل من المتنافسين ان يقطع خيط طائرة الثاني بتأثير الاحتكاك .

وقد شاءت الصدفة ان احضر العيد السنوي لجمهورية الصين الذي يقع كما ذكرت مع عيد النزهات . وجرى الاحتفال في احدى الحدائق العامة حيث توافد الموظفون والنبلاء من رجال الدين والمدنيين . ووضعت منضدات طويلة تحت خيمة بيضاء وزرقاء وضمن مباني الحديقة كما بثت الارائك المغطاة بالسجاد في كل مكان . ولاحظت ان الرهبان كانوا يلعبون بالورق في حماس شديد . ولئن كان الدين البوذي يحظر الميسر على الرهبان الا ان اكثرهم لم يكن حتى ليحاول اخفاء اوراق العملة المكدسة الى جانبه. وتحت السرادق المنصوب ، وضعت منصة خاصة بالراقصين والموسيقيين الا ان الحضور كانـوا منشغلين عن ذلك بالشرب والثرثرة . أما النساء فلم يكنّ حاضرات بين المدعوين .

في هذه المناسبة تعلمت كيف احب الشاي مع الزبدة . هذا المشروب ليس له ايـة صلة بالشاي الذي يشرب عادة في الصين والهند أو في اوروبا . وخير وسيلة للتعود عليه هو أن ينسى المرء انه يشرب شاياً وان يفترض انه يحتسي نوعاً من الحساء . ولهـذا الشاي صفات مقوية

ومغذية لا يشك فيها . وكلما كنت احس بالتعب نتيجة لقلة الهواء كان لا غنى لي عن شربه .. اما طريقة صنعه فسهلة : توضع علبة تامة من الشاي الناشف في الماء المغلي خلال فترة طويلة ويضاف اليها شيء من الملح والبيكاربونات وقطعة كبيرة من الزبدة ، ويمزج ذلك كله بعناية ضمن وعاء من الخشب وبعدئذ يكون الشاي معداً للشرب . وان المدمنين على هذا الشاي قد يشربون ستين كأساً في اليوم الواحد عدا المشاريب الكحولية .

أما الشبان الصينيون والتيبتيون فيقبلون على الرقص الحديث بحماس شديد غير آبهين بتحفظات الاجيال القديمة. ومن عادة الفتيات ان يقمن بدعوة الرجـال الى الرقص ولا يعجب احد اذا ما دعت احداهن نفس الشاب الى الرقص عدة مرات . وهن على الغالب يحسنّ الرقص الا انه قد يحدث ان تدعو راقصة مبتدئة احـد الشبان الى الرقص دون ان تستشعر أي حرج .

ابتدأ الناس لما اقترب عيد اول اكتوبر بتزيين نوافذ البيوت وشرفاتها وازدانت شوارع لاهاسا بالاعلام الصينية ذات النجوم الخمس . ونصبت اقواس النصر المزينـة بالقماش الاحمر كما وضعت منصة كبيرة في ساحة قصر باتولا . ولبس كل سكان المدينة اجمل ما عندهم من ثياب وتوجهوا نحو الاستعراض الرسمي الذي كان يجري عند قصر باتولا . وانضم الحجاج والفلاحون والصيادون

وجنود الجيش التيبتي وجيش التحرير الشعبي الى النبلاء والموظفين . فكان منظرهم العام عن بعد ، بما فيه من الوان زاهية وأعلام خفاقة وخيول مطهمة يذكر بجـو المبارزات التي كانت تجري في عهد الفروسية .

وبهذه المناسبة القيت خطب عديدة اخص بالذكر منها كلمة كالون نجابو وهو شخصية سياسية مهمة سبق له ان سهر في عام ١٩٥١ على مفاوضات انضمام التيبت الى الصين . تقدم كالون من الميكرفون واخرج من جيبه ورقة فيها رؤوس اقلام عن خطابه . وخلف رأسه كانت ترى صور ماوتسي تونغ والدالاي لاما والبانشن لاما . واخذ يتحدث باسهاب عن التطورات والانشاءات التي تحققت في التيبت منذ « انضمامها الى الوطن الام » وعن ادخال الوسائل الحديثة في الزراعة وانتهى من ذلك الى القول بان هذه المجهودات لم تتحقق الا « لأن التيبت تعتمد منهجاً شاملاً لتحقيق التطوير الاقتصادي والسير نحو الاشتراكية »

وتلاه في الكلام ممثـــل لجنة العمل التابعة للحزب الشيوعي . ويجدر بنا أن نقول بهذه المناسبة ان تسمية لجنة العمل لا تنطبق تمام المطابقة مع الواقع في التيبت لأنه لا توجد في هذه البلاد طبقة عاملة او تكتلات سياسية على الطريقة المعروفة في البلاد المتطورة ..

واغتنمت هذه السانحـــة لافحص الجيش التيبتي عن كثب . وكم كانت دهشتي عظيمة اذ الفيت ان الطابع

البريطاني غالب عليه . وخيل الي انني استعرض فوجاً انكليزياً من الحرب العالمية الاولى .

في نهاية الاحتفال توجهت صوب المشرب . ودهشت وانا احتسي قدح الشاي الرابع لسماع صفير طويل وحاد وأخبرني القوم ان مبارزة في قذف السهام قد ابتدأت ؛ والاسهم التيبتية مزودة بعذبات خشبية ممتلئة بالثقوب كيما تشق الفضاء وهي تصدر صفيراً حاداً . وفي احدى الزوايا كان بعض الابطال يرفعون الاثقال . بينما كان آخرون يؤدون رقصات تيبتية في غاية الروعة والجمال ؛ ويلاحظ ان هناك شبهاً بين الرقصات التيبتية ورقصات هنود اميركا الشمالية . فالراقصون يضعون فوق رؤوسهم قبعة بشكل مروحة تذكر بالريش الذي يضعه الهنود الحمر فوق رؤوسهم ويستعملون عصا وهم يتنقلون في شكل دائرة الواحد تلو الآخر ويضربون الارض باقدامهم بشدة على نغم خافت منظم . وقد وجدت كثيراً من التشابه بين هذين العرقين في اثوابهم المنسوجة باليد والتعابير التي ترتسم على وجوههم ومشيتهم المرنة اللطيفة واخيراً الشبه بين « الياك » الحيوان الذي تحدثنا عنه و « البوفالو » الاميركي . ان هذه أمور يجدر بعلماء الاجناس الانتباه اليها في المستقبل .

وان انس فلن انسى اليوم الثاني من اكتوبر لأنه كان حافلاً بالحوادث التي ترسخ في الذهن وخاصة افتتاح

المعرض العلمي ومباراة كرة القدم بين التيبتيين والصينيين

توجهت نحو قاعة المعرض فوجدت امام المبنى طابوراً طويلا اكثره من الرهبان . واظن ان سكان لاهاسا كلهم قد قصدوا هذا المعرض خلال اسبوع العرض ليتفحصوا اهم الاختراعات الفنية الحديثة في ميادين الزراعة والطب والادوات المنزلية .. وكان اكثر ما جلب الاهتمام خاصة لدى الاطفال هو المجهر . وقد خيل للفلاحين البسطاء ان ملايين الديدان التي ظهرت على قطعة الجبن الموضوعة تحت عدسة المجهر ظاهرة عجيبة لا تصدق . ان هـذا يثير مشكلة لاهوتية عويصة وشائكة اذ لا يستطيع الانسان اكل قطعة صغيرة من الجبن دون ان يهلك المـلايين من الخلايا الحية .

بعد ذلك اتجهت نحو الملعب لحضور مباراة كرة القدم، كان على منتخب لاهاسا ان يقابل احسن فريق في جيش التحرير الشعبي . ولم يكن ليتميز اللاعبون في منظرهم ولباسهم عن اللاعبين الغربيين .

الا ان نصف اللاعبين التيبتيين كانوا من النبلاء المدنيين ذوي الجدائل الطويلة ، والآخرون كانوا من الرهبان ذوي الشعر الحليق ؛ الأمر الذي كان يسهل الضربات بالرأس فيما يبدو لي .

ولئن انتهت المباراة بالتعادل الا ان فريق لاهـاسا اظهر تفوقاً عـلى اعضاء الفريق الصيني الا انه لم يربح

المباراة لأن الدقة كانت تعوزه في تسديد الأهداف .

هكذا انتهت فترة الاعيـساد ، ولكن دون ان ينقطع نهم سكان لاهــــاسا الى النزهات والاستقبالات والاحتفالات .

الفصل الثاني عشر

الانكليز في التيبت

للداي لامان الخامس والثالث عشر افخم الاضرحةالموجودة في باتولا . فالاول سلم « الرهط الأصفر » دفة الحكم وبنى قصر البــاتولا ، أما الثاني فكان اول من جمع السلطتين الروحية والزمنية ، وقد دام حكمه ثلاثين عاماً في جو مشحون بالمنافسات بين الاقطاعيين والمعابد، ومهدد بالسيطرة الاقتصادية الانكليــزية وخطر الغزو . الا ان التيبتيين لم ينسوا انه بعد ما امر الجيش بالوقوف في وجه الانكليز تسلل هارباً من لاهاسا غير آبه بمصير شعبه .

ابتدأ الانكليز بالاهتمام بالتيبت منذ اواخر القرن الثامن عشر بتشجيع من الحاكم الانكليزي في الهند وشركة الهند الشرقية ، وقد عرض الحاكم الانكليزي على البانشن لاما عقد معاهدة تجارية فاثار هذا العرض حذر الممثل الصيني المقيم في لاهاسا مما دعاه الى ارسال رسالة الى البانشن لاما

عبر فيها عن وجهة نظر الجهات الرسمية وقال فيها :
« ان الاوربيين يحبون شن الحروب ... وتحت ستار احلال السلام والامن في ربوع البلاد يبسطون سلطانهم عليها » .

غير ان تقارير المبعوثين البريطانيين عن غنى التيبت بالذهب والمسك اثارت جشع التجار، لذلك لم تيأس الحكومة الانكليزية قط من احتلالها . وقد تحدث الضابط واديل عن الاستعدادات التي اتخذت لهذا الغزو في كتابه « لاهاسا واسرارها » فقال :

« عمدت الحكومات البريطانية الى استخدام عملاء سريين من اصل تيبتي مقيمين في القسم الانكليزي من جبال همالايا ، للحصول على خارطة مفصلة وجدية عن ارض التيبت المجهولة . وقد لقنوا طريقة استعمال البركار الموشوري وقراءة الخرائط واستكشاف الطرق » .

كان ذلك يجري في زمن عز الامبراطورية يوم كان الجواسيس يُعتبرون كابطال والالحاق يعد عملاً مشروعاً ومجيداً . وفي عامي ١٩٠٠ و١٩٠١ ارسل الانكليز رسائل الى الدالاي لاما بخصوص التبادل التجاري فما كان منه الا ان اعادها دون ان يحمل نفسه مشقة فض الغلاف مؤكداً ان كل مخابرة خارجية ينبغي لها ان تمر بالمقيم الصيني ، واخذ الانكليز يعدون العدة لاجتياح التيبت وتذرعت الحكومة البريطانية طبعاً بحجج عديدة مدارها ان التيبتيين يدعون انهم لا يستطيعون التجارة الا برضاء الصين . اما

الصين فتدعي انها لا تستطيع اجبار التيبتين على استيراد المزيد من المنتجات الانكليزية .

وفي الوقت نفسه ظهر عميل رهيب يحمل الجنسية الروسية ويدعى دورجييف وهو من اصل منغولي ويدرس في احد معابد لاهاسا . ولا توجد معلومات وافية عن نشاطه السري الا ان الانكليز ادعوا ان التيبتين يحشرون الدب الروسي مفضلينه على الأسد الانكليزي ، دون ان يستطيعوا اعطاء اتهامات معينة ضد هذا الكاهن الروسي .

وفي شهر كانون الاول من عام ١٩٠٣ دخلت قوات الجنرال ماكدونالد الى التيبت . وكانت اللحظة مناسبة لان روسيا كانت منهمكة في محاربة اليابان والصين منشغلة في بعض القضايا الداخليـــة . افتتح الانكليز لاهاسا في آب ١٩٠٤ اما الدالاي لاما فهرب تاركاً وصياً على البلاد محله. ثم عقدت معاهدة ضمت بموجبها منطقة « سيكيم » وثلاثة مراكز تجارية الى الحكم البريطاني .

وانعكست الآية في سنة ١٩٠٩ حين اتجه الجيش الصيني نحو لاهاسا مدمراً في طريقه المعابد ومرتكباً اشد الفظائع مما اضطر الدالاي لاما الى الهرب الى الهند في هذه المرة .

ولما سقطت اسرة مانشو في عام ١٩١١ عاد الدالاي الثالث عشر الى لاهاسا فشاهد ان الصين قد حاولت انتزاع السلطة من يد الحكومة المحلية كما قصرت سلطة المعابد على الامور الدينيـــة فقط . فاتجه حينئذ بانظاره نحو انكلترا

ولكن سرعان ما تبين له ان هدف السياسة البريطانية الوحيد هو ضم التيبت عن طريق اضعاف السلطة الزمنية للمعابد .

وفي عام ١٩١٣ عقـــدت بريطانيا مؤتمراً ثلاثياً مع الدالاي لاما والصين مقترحة تقسيم التيبت الى قسمين مما ادى الى اشتباكات بين الجيشين التيبتي والبريطاني .

وتقترن المناورات الانكليزية في هذه الحقبة باسم احد الخبراء الانكليز في الشؤون التيبتية واسمه « بيهل » . وقد لقيت سياسته كثيراً من المقـــاومة في اوساط لاهاسا الا انها لقيت تأييداً من بعض الاشخاص وخاصة من وزير المالية . وراجت اشاعات مفادها ان في نية الانكليز القضاء على سلطة المعابد بالاعتماد على النبلاء ؛ لذلك كان الكهان اكثر الناس محاربة لسياسة التوسع البريطانية .

ومع الزمن ازداد اقتراب الدالاي لاما من الصين حتى جاء عهد الكومنتانغ في الصين فعاد الدالاي لاما الى التقرب من بريطانيا الى ان توفي عام ١٩٣٣ .

الفصل الثالث عشر

التيبت ، الهند ، الصين

يعترف الرؤساء السياسيون للصين الحالية بأسباب العلاقات السيئة التي كانت سائدة بين التيبت والحكام الصينيين في النظام القديم . ويؤكد الصينيون انه لا يمكن انتظار أي شيء من قبل المستعمرين ، ولكن الحكومات الصينية السابقة لم تحمل شيئاً لتساعد التيبتيين على الدفاع عن أنفسهم ضد التدخل الاجنبي ، وان سياستها المتقلبة مكنت النفوذ البريطاني من التغلغل في أرض التيبت .

أما اميركا فأبدت ايضاً اهتمامها بالتيبت . وترجع بداية اهتمامها الى ايام الحرب العالمية الثانية حيث دخل العملاء الاميركيون الى هذه البلاد وعادوا منها ببعض المعلومات الطوبوغرافية . وعلقت الأوساط الحسنة الاطلاع أهمية على المذكرة التي أرسلتها بريطانيا الى الصين بالاتفاق مع الولايات المتحدة ، والتي تؤكد فيها ارتباط التيبت بالصين .

إلا ان هذا الاعتراف بحقوق الصين في التيبت لم يجر إلا يوم كانت الهند تحت الوصاية البريطانية ، والصين خاضعة للنفوذ الاميركي عن طريق شان كاي شك . ولما استقلت الهند ، وسجل جيش التحرير الشعبي انتصارات متتالية ، بدّل الغربيون سياستهم ، وقاموا بحملة دعاية من أجـل استقلال التيبت ، حتى وصل الحال بالقنصلية الاميركية في هونغ كونغ انها أخذت تضع أذون السفر على الجوازات الصادرة عن السلطات في لاهاسا ، غير آبهة باحتجاجات حكومة شان كاي شك . وعند انهيار جيش شان كاي شك استعد الاميركيون للاعتراف بالتيبت بصورة رسمية كدولة مستقلة ولتأييد ترشيحها الى هيئة الامم المتحدة . ويؤكد بعضهم ان اهتمام الاميركيين بالتيبت قـد تنبه نتيجة لتقرير صادر عن الخارجية البريطانية جاء فيه ان ثمة معادن لا تقدر قيمتها قد اكتشفت في هذه البلاد ، وأن هنالك معدناً شعاعياً جديداً يمكن استخدامه في صنع القنابل الذرية . .

إنقسم الرأي العام في التيبت نتيجة للتطورات التي حدثت في الصين ، فرفض البعض كل تقرب بحجة فشل التقربات السابقة من جهة ، ووجود الشيوعيين الذين لن يسمحوا للكهان بحكم التيبت من جهة أخرى . بينما قـال بعض الزعماء إن للصين الجديدة لأول مرة في التاريخ حكومـة قوية متماسكة ، بامكانها ان تحول دون السيطرة الاجنبية

على التيبت . اخيراً قررت التيبت الدخول في مفاوضات مع حكومة بكين . إلا أن السلطات البريطانية وضعت شتى العقبات لتحول دون وصول الوفد المفاوض الذي كان عليه ان يمر بأرض الهند . ثم جرت اشتباكات مسلحة بين الجيش الشعبي والجيش التيبتي ، وخلال الاشتباكات انضمت وحدات من هذا الجيش الى الصينيين . وفي هذه الاثناء أعلن الجنرال الصيني بصورة رسمية ان التيبت ستتمتع بالاستقلال الذاتي والحرية الدينية ، كما ان المعابد فيها ستحترم والتقاليد المتبعة ستصان . وجاء في الاعلان الرسمي ان جيش التحرير منظم جداً وجنوده مهذبون وشرفاء . وسيعوض عن كل خسارة بالسعر التجاري ، وستكون كل الخدمات مدفوعة . ثم جرى تبادل مذكرات بين الهند والصين يُعد نقطة انطلاق جديدة في العلاقات الاسيوية حيث اعترفت الهند بحقوق الصين في التيبت ، كما عبرت الصين عن حسن استعدادها لحل المشاكل التي تهم الهند . بصورة سلمية .ونتيجة لذلك وضعت التسهيلات أمام الوفد التيبتي الذي وصل الى بكين لعقد الاتفاق .

وفي هذه الاثناء كان المئات من ضباط وجنود الجيش التيبتي الذين أطلقوا من الاسر يتوافدون على لاهاسا ليتحدثوا عن هذا الجيش الجديد الذي يختلف عن الجيوش الصينية السابقة ، بمعاملته الحسنة ، ومحاربته السخرة ،

واستشارته الرؤساء المحليين ، واحترامه العادات المتوارثة والمعتقدات الدينية .

أما الوفد التيبتي فقد استقبل بحفاوة بالغة في بكين ، ووقع الاتفاق في ٢٣ ايار سنة ١٩٥١ ، وقد جاء في البند الاول : « ان الشعب التيبتي سيتحد ليطرد قوى المستعمرين المعتدية خارج البلاد ، وانه يعود الى أحضان الاسرة الكبيرة في الـوطن الأم : الجمهورية الصينية الشعبية » .

وقـد تضمن هذا الاتفاق ست عشرة مادة حوت التطمينات والضمانات التي تعهدت بهـا الصين في إعلانها الرسمي الآنف الذكر ، وطمأنت التيبت على ان تطبيق الاصلاحات لن يكون بالقوة ، وان الموظفين سيحافظون على مناصبهم مهما كانت ارتباطاتهم السابقة . اما المسائل الخارجية فستكون من خصائص الحكومة المركزية .

الفصل الرابع عشر

فنجان شاي عند الدالاي لاما

تتطلب شكليات الحصول على مقابلة مع الدالاي لاما مدة يومين وذلك بحسب القاعدة المسماة « يوما الاستعلام » وعلى كل حال فان هذه المدة ضرورية ليتعود المرء على المراسيم المعقدة التي تسبق المقابلة مع الملك الاله الذي عاد الى الارض في صورة تقمصات عديدة كيما يساعد الكائنات الحية على بلوغ النيرفانا منتهى النشوة والسعادة :

انه لشرف عظيم بالنسبة الى التيبتي ان يحظى برؤية الدالاي لاما . فمها ارتفع مقام الموظف فانه يحصل على غاية الشرف اذا ما تلقى بركاته . ولا يظهر الدالاي لاما امام الشعب الا ثلاث مرات في العام . ومن عادته اذا ما حضر عرضاً في قصر باتولا ، ان يختفي عن اعين الجمهور بجلوسه في مكان عال معزول بستار من الشاش . ويحرسه في طريقه الى القصر جنود عديدون ومجموعة ضخمة من

الكهان القسس .

ولد الدالاي لاما الرابع عشر الملك الإله الحالي عام ١٩٣٥ قرب بحيرة نوكونور الموجودة في الصين وذلك بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على وفاة سلفه . وقد عرض البانشن لاما التاسع قائمة تتضمن ثلاثة مرشحين ، كان احدهم الدالاي لاما الحالي الذي اجتاز بنجاح كل الاختبارات التي من شأنها اثبات ان روح الاله شنرزي قد تقمصت في جسده . اذ كان له اذنان شديدتا البروز وكان على جسمه علامتان يفترض فيهما انهما تمثلان مكان ذراعي الإله . زد الى ذلك ان الكاهن المكلف بالعثور على تقمص بوذا دخل متنكراً الى بيت الغلام وكانوا من الفلاحين فهرع نحوه الغلام الذي كان عمره سنتين فقط وهو يصرخ « لاما » . وقد نالت اسرته مراتب الشرف نتيجة لانتقائه وقدمت اليها الحكومة املاكاً واسعة .

يقتضي العرف ان يقدم الزائر الى الدالاي لاما وشاحاً من الحرير النفيس طوله ستة اقدام وعرضه قدمان . يحمل احد الخدام هذا الوشاح بطريقة خاصة الى ان يحل وقت التقديم فيستلمه الزائر ليقدمه بدوره الى الدالاي لاما وهو مبسوط الراحتين . ويرد الدالاي لاما الشكر على الهدية بوسائل مختلفة احداها انه يضع وشاحاً على عنق الزائر اذا كان رفيع القدر .

ولما كنا في شهر ايلول فقد كان الدالاي لاما مقيماً آنذاك

في قصره الصيفي في حديقة بيجو الجميلة المشجرة المحاطة بسور والواقعة على مسافة ميل تقريبـاً من بوتالا مقره الشتوي . نزلت من سيارتي ورددت تحية ضباط الحراسة وسلكت سيراً على الاقدام طريقاً محفوفاً بالاشجار يؤدي الى قاعة الاجتماعات ، فقيل لي ان قداسته مستعد لاستقبالي واقتادوني الى غرفة استقباله الخاصة تحت العيون الرهيبة لصف من الكهان القسس ذوي بنية ضخمة . ثم صعدت الدرجات المؤدية الى القاعة في صمت مقلق ولّد في نفسي شعوراً بالدهشة والرهبة .

بعد الانتهاء من مراسم الاستقبال صافحني الدالاي لاما وشد على يدي بقـوة ثم اجلسني على مقعد وثير بجانب احدى النوافذ ، كانت القاعة مزينة تزييناً يخلب الانظار وكانت الجدران مفروشة بالخشب الثمين المحفور حفراً دقيقـاً كما كانت الارض مغطاة بالسجاد الفاخر . وبدا الدالاي لاما باسم الوجه لما قدم له الشاي بالزبدة في الاواني الذهبية ثم رفع كأسه الى فمه ودعاني الى الشرب. وفي هذه الاثناء كان لا ينقطع عن القيام بحركات ينبغي على من كان في وضعه ان لا يكف عن ادائها .

انهال علي الدالاي لاما بوابل من الاسئلة اذابت البرود الذي كاد يسيطر على الجو . كيف كانت سفرتي ؟ ما هي انطباعاتي عن التيبت ؟ هل جاء الواقع مؤيداً لتخميناتي؟ كيف وجدت الطقس ؟ هل مسكني مريح ؟ ما رأيي

في الطرق الجديدة ؟ شعرت ان أمامي شاباً في العشرين ثقفته الحضارة التيبتية التي لها مزايا لا تنكر .

قلت له : يا صاحب القداسة ! لقد قرأت كتباً كثيرة عن التيبت . وان اغلبها يقول إن التيبتين لا يحبون الاجانب وان بلادكم ليست شديدة الحضارة . الا ان التجربة اظهرت لي عكس ذلك ، فقلما يتمتع شعب بلطافة مثل لطافتكم .

واجابني الدالاي لاما وهو يقدم لي صحناً من الفطائر : كتب كثيرون من الاجانب وخاصة الانكليز عن التيبت فاضافوا شيئاً على اللوحة الحقيقيـة او حذفوا منها شيئاً . ان هذه الصورة الخاطئة احدثت كثيراً من الضرر وساهمت الى حد كبير في تأزيم علاقاتنا مع الخارج . فآمل ان تقول للعالم الحقيقة عن التيبت بصورة واضحة .

ثم أديرت علينا كؤوس الشاي العادي واعتباراً من هذه الآونة دب النشاط في حديثنـا وكان الدالاي لاما خلال هذه المحادثة يتكلم بيسر وثقة دون ان يوجه النظر الى من حوله من مستشارين مهما كان موضوع الحديث .

ولما لم يتح لأي اجنبي الدخول الى التيبت منذ توقيـع اتفاق بكين عام ١٩٥١ فقد سألته كيف تطور الوضع منذ هذا التاريخ . فأجابني قائلاً : ان ابواب المستقبل كانت مغلقة امام التيبت قبل ان تعقد هذا الاتفاق . فقد هجرت الطريق القديم المؤدي الى الظلمات وسلكت طريقاً جديداً مفعماً بالامل .

كان مستشاره عن يمينه يسجل على دفتر ضخم كل كلمات الملك الآله . واستطرد الدالاي لاما قائلا : طرأت أولاً تحسينات هامة على علاقات التيبتيين مع الهان «الصينيين» ومع بعضهم بعضاً . ان اول احتكاك جرى بين الهان والتيبتيين يعود الى أكثر من الف عام إلا أن حكم اسرةماندشو والكومنتانغ أساء في بعض الأحيان الى العلاقات وولد الحزازات بين الصينيين والتيبتيين . لذلك لم يكف التيبتيون عن الحذر حتى بعد عقد الاتفاق إلا أنهم سرعان ما لاحظوا المسلك الصحيح القائم على المساواة والتعاون المتبادل . وعلى صعيد الشعب التيبتي ذاته تحسنت العلاقات وازدادت الثقة المتبادلة .

ثم سألته عن الانطباعات التي خلفتها في نفسه زيارته الاخيرة للصين ، فأجابني بعد الامعان والتروي : ان نظام الديمقراطية الشعبية الموجهة من قبل الطبقة العاملة ، والمستندة الى تحالف العمال والفلاحين ، يبدو لي عادلاً من الناحية السياسية .

إن هذا النظام يعمل بشكل خاص لضمان البحبوحة والسعادة بالنسبة الى الجماهير ، وفي بلادنا مجموعة مختلفة من الأديان والنحل تحميها الحكومة المركزية ؛ الأمر الذي يثبت أن الحرية الدينية محترمة ومضمونة .

كان يعني بكلمة «بلادنا» الأمة الصينية بمجموعها . وتابع كلامه : ان وضعنا الاقتصادي قد ترسخ ، ونحن

ننتج اليوم أشياء لم نكن نستطيع صنعها فيما مضى . ففي الشمال الشرقي مثلا بذلنا مجهوداً ضخماً في ميدان الصناعة الثقيلة الكفيلة بتأمين وسائل الانتاج . أما مستوى السكان المعاشي فقد تحسن .

ثم سألته : ألا تريدون أن تشرحوا لنا موقف المذهب اللاموي من الحرب والسلام كيما انقل كلماتكم الى المؤمنين الموجودين في البلاد الاخرى .

فأجابني والابتسامة تغمر وجهه :

"يعلمنا ديننا أن هناك حسنات في الحياة الحالية وحسنات في الحياة المقبلة . فكيما يصل المؤمنون الطامحون الى السعادة في الحياة المقبلة ينبغي لهم أن يعملوا بكل تضحية في سبيل سعادة الآخرين . أما المؤمنون غير الطامحين فعليهم أن يعيشوا متجنبين فعل الشر وأذى الآخرين .

فمن واجب كل مؤمن إذن مهما يكن مستواه أن يعارض فكرة الحرب ليجد السعادة في الحياة المقبلة .

وعقب على ذلك قائلاً : ان الحرب تجر معها الموت والويلات والمجاعات والكوارث حتى ان اصغر الكائنات الحية مثل الحشرات لا تسلم من أذاها . الحرب دائماً مضرة بالكائنات الحية والكائنات غير الحية . اليك مايجب أن تقوله للبوذيين الموجودين في البلاد الاخرى . نحن نحب السلام لأن قتل الكائنات الحية ، بالنسبة الى العقيدة البوذية ، سبب الألم في تجربة التناسخ اللامتناهية في الحياة

المقبلة . وان افضل وسيلة للانتقال من سعادة الى اخرى هي أن يبذل المرء جهده بكل غيرية كيما يحمل الراحة الى الآخرين . لذلك يتفق السلم العالمي كل الاتفاق مع تعاليم ديننا . نحن التيبتيين مؤمنون ايماناً عميقاً بالمذهب البوذي ونتمنى انتشاره الدائم ونكن اعظم الحب للوطن الام لأن سياسته قائمة على حماية الحرية الدينية كما نهوى السلم ونعمل على المحافظة عليه ونناضل بكل قوانا ضد الحروب ونتمنى لو قويت الحركة في سبيل السلم العالمي .

وأجابني عن سؤالي اياه عن مصالحته مع البانشن لاما بقوله : ان البوذيين قابلوا هذه المصالحة بفرح شديد .

ثم انتقل بنا الحديث الى المشاكل الدولية وخاصة مسألة العلاقات بين الهند والصين فقال :

تربط الشعبين الصيني والهندي أواصر المحبة والصداقة منذ قرون . فهما يعيشان متجاورين على خير ما يكون التجاوز والتفاهم المتبادل . وقد قاسيا كلاهما من الاضطهاد الاستعماري والاستثمار الاجنبي مما خلق المزيد من الصداقة فيما بينهما . ان العلاقات الصينية الهندية تنمو وتترسخ يوماً بعد يوم . ويمثل التضامن بين هذين الشعبين اتحاد ٩٠٠ مليون نسمة . ان مثل هذه القوة لا تساعد على توطيد السلم في آسيا فحسب بل تلعب أيضاً دوراً كبيراً في المحافظة على السلم في العالم .

كانت قد انصرمت ساعتان على محادثتي مع الاله الحي

ويبدو انه لم تجر قط من قبل محادثة تميزت بمثل هــذا الطول ومثل هذه البساطة وعدم التكلف . ومن حين الى آخر كان أحد النبلاء بلباسه الذي يُذكر بأزياء القرون الوسطى يطلع علينـا لمدة وجيزة كيما يصورنا . وكان الدالاي لاما مرتدياً ثوباً من حرير كشمير النفيس خمري اللون وكانت احدى ذراعيه عارية كما تقتضي تقاليد المعبد.

وافضى الي الدالاي لاما ونحن نحتسي آخر قدح شاي ببعض محادثاته مع ماوتسي تونغ وكان يحرص على تسميته «زعيم مختلف القوميات في بلادنا» . كان يتحدث ببطء كيما يتيح لي تسطير كلماته .

قال : بحث الرئيس ماوتسي تونغ معي مواضيع عديدة كما وجه إلي بعض التعليمات . وقد تولدت لدي القناعة التامة بأن المستقبل الزاهر الذي ينتظر الصين الحديثة ينتظر الشعب التيبتي أيضاً . طريقنا هي طريق الامة بمجموعها والاقتصاد الصيني هو في تطور دائم . وعـلى التيبت أن تبذل جهوداً كبيرة لتقضي على عوامل التأخر في الميدانين الاقتصادي والتربوي . إلا أننا نعلم جيداً أن الحكومـة المركزية وموظفيها المتفوقين سيقدمون لنا كل المساعدة اللازمة . زد الى ذلك أن ماوتسي تونغ أكد لي ان بامكان التيبت رغم تخلفها ان تساهم بدورها ، بعد عشرين عاماً على الأكثر ، في بناء الاقتصاد القومي بمجموعه . ونحن نؤمن ايماناً راسخاً بامكانياتنا المقبلة .

وانهى الدالاي لاما حديثه وهو يبذل عناية متزايدة بكلماته فقال : نحن معتقدون تماماً اننا ، نتيجة لجهودنا المبذولة ومساعدة السلطات المركزية المتطورة ، سنحيا ذات يوم حياة ملؤها السعادة في ظل النظام الاشتراكي مع شعوب الصين كلها .

لم يكد الملك الاله ينهي كلماته حتى انتصب قائماً مشيراً الى انتهاء المحادثة التي دامت اكثر من ساعتين وربع الساعة . وشرفني بتقليدي وشاحاً حول الرقبة وبمصافحتي بشدة وحرارة مرة اخرى . ثم سار بي الى الخارج تحت اشعة الشمس المشرقة وبين الاشجار والزهور حيث كان المصورون في انتظارنا . بعدئذ تصافحنا للمرة الاخيرة وبارحني الدالاي لاما ومعه حاشيته . وقد خيل اليّ انه استساغ هذه المقابلة نظراً الى البهجة التي ارتسمت على وجهه المعبر . كنت لا أستطيع أن اصدق ان هذا الشاب ليس له من العمر سوى عشرين عاماً لأن شكله كان مفعماً بالحشمة والنبل المتوارثين من عصور طويلة . فهو نموذج يظهر كيف ينجح ممثل احدى الحضارات القديمة في أن يكون ابن القرن العشرين وفي ان ينطلق في مواجهة العالم الحديث وهو مفعم القلب بالامل .

بعد انصراف الدالاي لاما تشرفت بزيارة حديقة (بيجو) حيث يقطن اخوه بصورة دائمة . فسحبت له صورة ملونة وهو واقف امام اكوام من الزهور تصل الى كتفيه

وقد وجدت فيها نفس الازهار التي تنمو في انكلترا إلا أنها كانت في هذه المنطقة الشامخة أكثر نمـــواً وازدهاراً وضمن هذه الحديقة زرت بستاناً مسوراً بحائط ارتفاعه اثني عشر قدماً خاصاً بالدالاي لاما واصفيائه . هذا البستان صنعته يد الانسان إلا ان له منظر الحديقة المتوحشة وحتى بحيرته الهادئة التي يسبح فيها البط الوحشي مصنوعة بيد البشر . ينتصب وسط هذه البحيرة بناءان صغيران قائمان على دعائم حجرية احدهما معبد والآخر دار صيفية مكونة من غرفة واسعة الشرفات وغرفة استراحة . وقد وجدت فوق طاولة منخفضة موجودة في غرفة الجلوس قطعة نقود نحاسية لم يستطع أحد أن يشرح لي مغزاها . وكان هنالك حول البحيرة والبستان كلاب ضخمة وحول عنقها قماش من الصوف الاحمر يحمي جلدها لأنها تشد قيودها بغضب كلما رأت أحد الغرباء .

وخلال نزهتي مع (لوبسام سامتين) شقيق الدالاي لاما حدثته عن الانطباعات التي خلفها في نفسي اخوه الشاب . يجمع (لوبسام) بين صفة الكاهن والحاجب كما انه يشرف على اهم الموظفين في المعابد . والخلاصة فقد تأكد لي من محادثتي مع (لوبسام) ومن ملاحظاتي الاخرى ان الدالاي لاما الرابع عشر قضى على المتاجرة بالمناصب بفضل تفهمه وسياسته الحازمة :

الفصل الخامس عشر

اول سيارة جيب في شيفالزي

لم يتوقف اولئك الذين بنوا الطريق الجديد عند مدينة لاهاسا بل تابعوا عملهم في اتجاه الغرب نحو جبال حمالايا: بعد ان يجتاز الطريق الابيض المدينة المقدسة ماراً بالباب الغربي يتابع سيره على امتداد متنزه بيجو ومعبد ديبونغ ثم يتسلق الهضبة . وبين لاهاسا وشيفاتزي مقر البانشن لاما يمتد أعلى قسم من أعلى طريق في العالم .حين اخذت طريق السفر في الرابع من اكتوبر آملا الوصول الى غيـــانتز المدينة التي دارت فيها معارك دامية عـــام ١٩٠٤ بين الانكليز والتيبتيين . ومما زاد في سروري انني اول مسافر على هذا الطريق الذي لم يكن منتهياً بعد .

يقع معبد ديبونغ ومعناه «كومة الرز» عـــلى بعد ثمانية كيلومترات تقريباً من لاهاسا . انه اكبر معبد في العالم على

الاطلاق وقد يصل عدد الكهان فيه احياناً الى ماثة الف وقد سمي كذلك لانه وهو محاط بالجبـال المثلثة الشكل يشبه عن بعد كومة الرز . وهو اكبر ثلاثة معابد يطلق عليها لقب « اعمدة الدولة » الا ان تأثـير معبد «سيرا» الذي تلقى فيه الدالاي لاما علومه اكبر دون أي شك .

كان زيارتي الى معبد ديبونغ قد دُرست ونُظمت من قبل . يشبه هذا المعبد مدينة محصنة وله ابواب ثقيلة تصدر اصواتاً كلما فتحها الكهان الممسكون بعصيّ ضخمة ذات نهايات محددة . وانضم الينـا ونحن في طريقنا الى زيارة المعبد حارسان مسلحان بعصا طويلة ، تقدمـانا ببضعة امتار وهما يصرخان في الازقة الضيقة : ابتعدوا... افسحوا المجال . فاخـذ الكهان الذين كانوا يتلصصون علينا من النوافذ وعتبات البيوت ومنعطفات الازقة المظلمة يختفون كأنما لمستهم عصا سحرية ليعودوا الى الظهور بعد مرورنا .

منذ الف عـام ، جمد الوقت وتوقفت عجلته عن الدوران في المعابد التيبتية . ما من شيء تبـدل في حياة الكهان اللهم الا استعمالهم ساعات اليد التي هي اليـوم ضرورية جداً بالنسبة اليهم . والهياكل ، التي عفّى عـلى جدرانها الدهر ولطخها الدخان المتصاعد من المصابيح التي تحرق الدهن ، تضم مئات الصور والتماثيل المقدسة التي لا تقدر قيمتها بثمن بالاضافة الى القدرة العجيبة الكامنة

فيها بحسب اعتقاد المؤمنين اللاموين .

ان آلاف الكهان الذين يقطنون في المعبد يقسمون الى جماعات لكل واحد منها رئيسها الخاص ومعبدها وبستانها .

ويعيش الكهان الاغنياء والنبلاء في بيوت غالباً ما تكون ملكاً لعائلتهم اما الكهان الفقراء فيعيشون في مهاجع كبيرة . ووقعت عيني على سوط في غرفة رئيس احدى هذه الجماعات يبدو انه قد استعمل كثيراً . لان الكهان العائدين للحلقة الدنيا مجبرون على الطاعة العمياء المطلقة . واغلبهم يدخلون في السلك قبل ان يبلغوا العاشرة فيقومون بالاعمال اليدوية طيلة حياتهم دون ان يكون لهم أمل كبير في الترقية الا ان فرصة تعلم القراءة والكتابة تتاح لبعضهم مما يسمح لهم بتقديم الفحوص للارتقاء الى الحلقات العليا، ولا بد من الدراسة مدة ثلاثين الى اربعين عاماً لمعرفة النصوص المقدسة . ولا يمكن الارتقاء الى المناصب العليا الا بمعرفة هذه النصوص على انه يجب القول بان المال والنفوذ يساعدان على اجتياز المراحل .

في نهاية الزيارة ، سرحت انظاري في السهل الرملي الممتد عند اقدام المعبد وهو على ما كان عليه قبل خمسين عاماً لما هددت قوات القائد الانكليزي آنذاك بقصف المعبد اذا أصر الكهان على عدم تسليم ما لديهم من مؤن، وقد وصف هذا الحادث مراسل جريدة الديلي ميل الملحق بالجيش المحاصر بقوله :

« ركز الجنرال ماكدونالد الذي كان على رأس قوة كبيرة من الجنود البريطانيين والمحليين مدافعه ووزع جنوده المشاة على مسافة ١٣٠٠ متر من المعبد . بعدئذ ، ابتدأت فترة انتظار شاقة . فقد ارسلنا انذاراً الى الكهان اعطينا لهم فيه مدة محدودة ليوافقوا على مطالبنا ، ثم قاربت المدة من الانتهاء واخذ جنود المدفعية يحكمون التسديد الى قلب المعبد وكان يبدو ان هؤلاء الناس سيبقون على اصرارهم العنيد المميت . اخيراً وقعت اعيننا على صف من الكهان خرجوا من المعبد واخذوا يهبطون التل وعلى ظهر كل واحد منهم كيس من المؤن . فلم يعد هناك من داع الى امطارهم بالقنابل واحلال العقاب القاسي بهم ».

نزلنا من نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء الكهان منذ نصف قرن . كان الكاهنـــان المكلفان بحراستنا يتقدماننا وكنت احس بيني وبين نفسي ان الالوف مـــن الكهان غير المرئيين يتبعوننا بانظارهم . وما انقضت ساعتان ونصف الساعة حتى وجدتني فوق التل العالي على ارتفاع ١٥,٠٠٠ قدم . في هذا المكان يتميز الهواء بخفته حتى ان القبائل الرحل لا تهبط الى لاهاسا الا في فصل الشتاء لأنها تجد المناخ « السهلي » لهذه العاصمة الواقعة عـــلى ارتفاع ١٢,٨٠٠ قدم « فقط » كثير الازعاج في فصل الصيف .

بعد الخروج من لاهاسا وعلى امتداد ثلاثين ميلا تقريباً ، يحف بجـــانبي الطريق صف من الحصى تقطعه بين الفينة

والفينة ابنية حجرية مهددة في كل لحظة بالانهيار . ان استعمال الحصى وتصفيفها أو تطبيقها بمهارة على طول الطرق . من بقايا العهد الوثني التي انتقلت الى الديانة اللاموية . وعلى بعد خمسين ميلا تقريباً من لاهاسا ، ينقسم الطريق الى فرعين يتجه احدهما غرباً نحو شيغاتز والآخر شمالاً في اتجاه الصين عبر مئات الاميال من المستنقعات والاراضي الصحراوية .

وعند نقطة تشعب الطرق الفينا مضارب شبه دائمة للرُحّل . انها خيمتان من وبر الياك الاسود يحميها من عبث الريح جدار ارتفاعه اربعة اقدام . وقد دعاني هؤلاء الرُحّل للانضمام اليهم تحت خيمتهم باللباقة المعهودة عند التيبتيين . وكانت الى جانب الخيمتين اعشاش في احدها تمثال مقدس وفي البقية حاجات الأسرة .. وفي وسط الخيمة كانت ترى مدفأة من الطين تنشر الحرارة اللطيفة في ارجاء الخيمة وعليها قدر فيه شاي مغلي . ولاحظت في احد اركان الخيمة اداتين لا غنى عنهما في البيت التيبتي هما وعاء صنع الزبدة والوعاء المستخدم في مزج الشاي . هذان الوعاءان كانا من نفس النوع . اسطوانة خشبية عميقة فيها خفاقة من خشب . ان وعاء الشاي ضروري للرُحّل الذين يحملونه على ظهورهم وقت السفر .

صبت صاحبة البيت ، وهي متزوجة من ثلاثة اخوة ، الشاي الساخن في الوعاء واضافت اليه الملح والبيكاربونات

والزبدة واخذت تمزج هذا الحساء اللذيذ . ثم أخرج كل واحد قدحه الخاص من قميصه ، وبالمناسبة نذكر ان كل تيبتي يضع تحت قميصه وبملاصقة جسمه قدح الشاي وعلبة التبغ وبعض الصور الدينية ، وبعد احتساء الشاي واكل (التسامبا) الطعام التيبتي الوطني دخنا بعض السيكارات .

يحتاج صنع خيمة شبيهة بتلك التي آوتنا ، الى عمل خمسة أعوام . ويراعى في صنعها افتتاح فرجسة ضيقة في قسمها الأعلى ليخرج منها الدخان . ومن عادة الرجال والنساء والاطفال في منطقة المضساب ان يشغلوا انفسهم بغزل وبر « الياك » ان لم يكونوا منهمكين في ادارة طواحين الصلاة .

بعد ذلك عدنا الى الطريق متجهين نحو شيغاتز . لا شك في أن المنطقة التي كنا نجتازها هي المنطقة التي توسع الغربيون في وصفها اكثر من غيرها وهي التي اكسبت التيبت الشهرة العالقة بها وهي أنها بلاد مقفرة جافة ، إلا ان الاجانب الذين زاروا المنطقة الواقعة شرقي لاهاسا قليلون . ولم يتحدثوا إلا عن فيافي رتيبة المنظر تمتد في سفح جبال مقفرة جرداء . إلا ان الفلاحين الاقوياء المرحين يسترعون الانتباه ببشرتهم المحروقة بالشمس .

وعلى بعد خمسين ميلاً الى الشرق من شيغاتز وصلنا الى نهر كانت الحركة نشيطة على ضفته وكان صف طويل من سيارات النقل بانتظار العبور حال الانتهاء من الانشاءات

ثم مرت سيارتنا في الطليعة وكانت أول مركبة تنتقل الى الضفة اليسرى في منطقة لم تطأهـا السيارات قط . كانت الضفتان مكتظتين بمئات الاشخاص الذين قدموا للاحتفال بهذا الحادث التاريخي . ودرجنـا بسيارتنا بين صفين من الرجال والنساء الذين لبسوا أحسن ما عندهم الى أن وصلنا الى ساحة القرية المسماة « دارتوغا » . كنـا نسير لأول مرة في المناطق الواقعة تحت سلطة البانشن لاما وقـد لاحظت ان النساء اكثر اعتناء بزينتهن وقد أحاط الناس بسياراتنـا من كل جانب وزينوها بالاوشحة احتفـاء بقدومنا .

بعد ذلك اجتزنا خمسة عشر ميـلاً في مناطق مقفرة مخلفين وراءنا سيارات النقل الثقيلة . ولم تكن العين لترى إلا صخوراً جرداء بارزة من خلال الرمال الكثيفة الـتي حملتها الرياح فغطت غور الوادي حتى كادت تغمر الجبال، ثم هبطنا نحو النهر حيث توجـد منطقة خصيبة ملأى بالمزارع والقرى . وفي كل قرية كانت السلطات المحليـة على علم بموعد وصولنا بصورة دقيقة دون ان أدري باية وسيلة عجيبة كان يصلها الخبر . من الصحيح ان الكهان الاكثر قداسة مشهورون بقدرتهم على نقل صورة بصرية، وهم على مسافة ما ،في عدد من الثواني . ولما لم يكن في المنطقة أي اتصال هاتفي أو برقي فقد خيل اليّ ان هؤلاء الحكماء قد استخدموا مواهبهم في نقل الخبر . ودرجنا على

تبادل الاوشحة فكنا كلما وصلنا الى قرية اعطينـــا أهلها الأوشحة التي أخذناها من القرية السابقة . وكان الفلاحون يبقون منزوين بعض الشيء خلف الموظفين والكهـــان وايديهم فوق فمهم ، أما الاطفال فكانوا يتلهون بالتسلق على سياراتنا ويلعبون بالمِقْود والزمور لأنهم لم يروا قط السيارات في حياتهم .

يبلغ عدد سكان منطقة تسانغ ٢٠٠،٠٠٠ نسمة نصفهم خاضع لنفوذ البانشن لاما بصورة مباشرة ، أمـــا البقية فبعضهم يخضع للدالاي لاما والفرقـــة الصفراء والآخرون يخضعون للفرقة الملونة . إلا ان الدالاي لاما لـــه مصالح كبيرة في منطقة تسانغ يديرها أشخاص مقيمون في حصن يظهر انه كان النموذج الذي بني على شاكلته قصر باتولا وقد وصلنا عند مهبط الليل الى هذا الحصن الضخم الجبار وتبادلنا الأوشحة مع المسؤولين قبل ان نتنـــاول الطعام في مطعم شيغاتز الحديث .

في صبيحة اليوم التالي ، استقبلنا باكراً رؤساء منظمات الشبيبة والمنظمات النسائية . وقد قص علينا أربعة شبـــان متيني البنية وثلاث نساء يظهر انهم جميعاً من أصل نبيل ، ما ينجزونه من أعمال . إن اعضاء أمثال هذه المنظمات هم غالباً من الكهان والنبـــلاء أو من التجار وزوجاتهم . ان أفراد الطبقات العليا فقط متعلمون لأن النظام الاجتماعي البالي يحول دون ازدهار ثقافـــة اكثر ديمقراطية . كل

شيء يجري بمقتضى المثل اللاموي القائل : « الرجل الغني في قصره والرجل الفقير في كوخه ، تلك هي مشيئة الله، أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل ، ولكل واحد وضعه الخاص » .

كل الديانة اللاموية تقوم على هـذا المعتقد . فالعبد الرقيق يجفل من فكرة الجلوس على نفس الطاولة مع سيده ليناقشه . فلا بد اذن من ان نأخذ بعين الاعتبار ، ابتداء جلوس الافراد العاديين ، ولو بعدد محدود ، بجانب الارستوقراطيين ضمن المنظمات والجمعيات الجديدة .

الفصل السادس عشر

رشاشات ضد بنادق ذات فتائل

لم يظهر (لورسان دورجي) الذي يعني اسمه (الحب الراضي) أية علامة من علائم الخنوع تجاهي . كان هادئاً ، مهذباً ، واثقاً من نفسه ، لم ينحن أمامي ، ولم يبسط راحتي الكفين نحوي ولم يطلق هذا الصفير الذي يدل انه الرجل البسيط ، يتجنب ان يعدي الهواء اثناء حديثه مع من هم أعلى مرتبة منه . كان (لورسان دورجي) وهو عامل متخصص ، يشتغل في إعداد الطريق بين (شيناتسي) و (غيبانتسي) . وقد أخبرني بأنه كان أحد ضحايا الفيضانات التي اجتاحت الوادي السعيد بتاريخ ١٧ تموز سنة ١٩٥٤ ، فسببت غرق ٧٠٠ شخص ، وأتلفت ما يعادل ١٠،٠٠٠ اكر من المزروعات ، وأدت الى خراب بيوت جميع سكان الوادي السعيد تقريباً . ولم يكن في وسع التيبت ان تجابه في ذلك الوقت مصائب

عامة من هـذا النوع ، بسبب مستوى الانتاج الشديد الانخفاض .

كان (دورجي) يعمل في الحقل حين داهمه الفيضان ، فاكتسح بيته ومحصوله وكاد يجر معه امرأته وولده ؛ وأصبح (دورجي) وأفراد عائلته ما بين عشية وضحاها بدون مأوى ، مفلسين جائعين . ولم يكن هنالك أي أمل في ان تأتي المساعدة من أحد ؛ لأن التيبتيين اذا كانوا يوزعون الصدقات على الشحاذين بطيبة خاطر ، ارضاء للآلهة ، فانهم لن يساعدوا ضحايا هـذه الطوارىء والحوادث التي يعتقدون انها تهدف الى معاقبة الناس عن ذنوبهم في حياتهم السابقة . وقال لي (دورجي) وعيناه تلمعان : في هذه المرة . هرع مبعوثو (الكاشانغ) ، ولجنة (كنبو) وممثلون صينيون ، الى مكـان النكبة وبدأوا ينظمون النجدات والمساعدات .

قال لي دورجي : لقـد اعطوني ثلاثين رطلاً من الشعير ، و١٢ قدماً من القماش ، وخفاً وحذاء ، وغطاء وقميصاً . وبما اني من مواليد (شيغاتزي) فقد اقترحوا علي ان اعمل في ورشات البناء الجديدة ، وقيـل لي انه في استطاعتي ان اقطن في أحد البيوت الحديثة . كانت الأجرة تعادل ٩٠ سنتاً في اليوم ؛ أما التعرفة العادية بالنسبة لعامل البناء ــ حين تدفع له أجرته هنا ــ فتعادل ٥٠ سنتاً في اليوم .

بعد تقديم المساعدات المستعجلة الى المنكوبين ، وضعت سلطات بكين برنامجاً طويل الامد لمساعدتهم ، فمنحت التيبت مبلغ ١١٥،٠٠٠ ليرة لتمويل أعمال البناء ومشاريع اخرى ضخمة لاعاشة العمال وتأمين محصول السنة التالية من جهة أخرى . وعندما أنهى (دورجي) عمله في ورشات البناء ، انتقل الى ورشات انشاء الطريق الجديدة . وقد قال لي : لقد استطعت ان احصل على العمل . ان العامل الماهر يستطيع أن يربح ٦ دولارات وخمسين سنتاً يومياً ، وهذا يعد اجرة استثنائية في التيبت .

كان (دورجي) أحد ثلاثة عمال يعدون نموذجاً للعامل النشيط . وقد انتخب بعد ذلك عاملاً نموذجياً للطرق والمعابر ، وصرح لي بفخر قائلاً :

ـ كانوا يطلبون منا أن نبدأ العمل عند الفجر ، وأن نتوقف عنه قبل غروب الشمس ، مع ثلاث فترات للراحة ، ولكني كنت ابدأ قبل طلوع الشمس ، ولا أتوقف عن العمل إلا عندما يحل الليل ، ولا استفيد سوى من فترتي راحة . كنت أحاول ان أكسب الوقت .

قلت له : لماذا تجهد نفسك في العمل ؟

فأجابني وهو يزن الكلمات :

ـ اني اعمل قبل كل شيء لأكسب قوتي ، وانا معتاد على العمل الشاق . كما اني أكسب كثيراً حين أزيد من ساعات عملي . وبهذه الطريقة لن أصادف أية صعوبة

في العيش حين يحل فصل الشتاء :

ــ حين ينتهي انشاء الطريق ، هل ستعود مرة ثانية الى الحقول ؟

ــ كلا ، لقد علمني جيش التحرير الشعبي مهنة عامل بناء وآمل ان أجد عملا في هذا الفرع .

ــ هل تتفاهم جيداً مع الهان ؟

ــ ان أكثر افراد جيش التحرير طيبون ، فهم لا يطلبون منا ما لا يستطيعون هم عمله . وبالطبع ، يحدث احياناً ان نصادف شخصاً يلعب دور الفظ المتعاظم ، لكن هذا نادر جداً . انهم دائماً مستعدون لمساعدتنا ، وحين تظهر علينا ملامح الضعف والمرض ، يرسلون حالا إحدى الممرضات لتعتني بنا . وفي أحد الايام وقعت مريضاً خلال اسبوع ، وكنت أتناول كل يوم تعويضاً يعادل دولاراً ونصف الدولار . ان (الهان) يحاولون تعلم الكلام باللغة التيبتية وهم ينصحوننا دائماً بان نتحد وان نعمل لتحسين احوال بلادنا .

استعلمت من ادارة الطرق فقيل لي ان الوصول الى (غييانتسي) ممكن بواسطة سيارة الجيب ، على الرغم من ان بعض الجسور لم تنشأ بعد .

وتضم الـ ٥٧ ميلاً التي تفصل (غييانتسي) عن شيغاتزي ودياناً تقع على ارتفاع ١٣،٠٠٠ قدم ، وقد قطعنا هذه المسافة بظرف ساعتين ونصف الساعة على الرغم

من توقفنا عشرين دقيقة عند اجتياز السيول :

تقع (غيبيانتسي) في قلب سهل واسع خصيب ، وهي لا تزال كما كانت في السابق محطة تلاقي الطرق التجارية الآتية من الهند ، بيتان ، نيبال ، شيفاتزي ، لاهاسا ، منغوليا ، سيبيريا ، والصين الشرقية . وتتناثر في هذا السهل المطوق بالجبال قرى عديدة .

تسيطر قلعة (غيبيانتسي) على المدينة والمعبد ، وهي قلعة يعود بناؤها إلى ما قبل الف سنة . وأمام هذه القلعة اضطرت القوات البريطانية الى التوقف خلال ثلاثة أشهر سنة ١٩٠٤ ، بعد ان أبيدت نخبة الجيش التيبتي في (نمورو) .

وقد أثارت حادثة (نمورو) في ذلك الزمن رد فعل عنيف لدى الرأي العام البريطاني ، فكتب لاندون مراسل التايمس يقول : « هناك إشاعة منتشرة في لاهاسا ان الانكليز أوقعوا الجنود التيبتيين في فسخ ، ثم أجهزوا عليهم بوحشية »

وكتب لويل توماس الابن : « أهدى نائب الملك تهانيه الى (يونغسباند) ، الذي أصبح فارس الامبراطورية كما هتف له في مجلس العموم تقديراً لكونه المسؤول عن « المذبحة » .

ان اسم (يونغسباند) مكروه في (غيبيانتسي) وفي كل عام تقام حفلات خاصة في معبد المدينة تحيي ذكرى هذا العمل الوحشي الذي ارتكبته القوات البريطانية في (غورو) :

مكث (يونغسباند) وجيشه خلال الاشهر الاولى لعام ١٩٠٤ في جبال حمالايا للتعود على جو المنطقة . وفي نهاية آذار بدأ الجيش الانكليزي بالتحرك ، فالتقى عند (نمورو) بالعدد الأكبر من القوات التيبتية ، التي كانت تحتمي وراء الجدار لتسد الطريق على القوات الانكليزية . وقد جرت مفاوضات بين الفريقين ، ثلاثة جنرالات من لاهاسا وشيفاتزي وياتونغ ، يمثلون الطرف التيبتي ، ويونغسباند يعاونه الجنرال ماكدونالد عن الطرف الانكليزي . وطلب التيبتيون من الانكليز ان يعودوا ادراجهم الى ياتونغ لمتابعة المفاوضات . وتتفق جميع المصادر على صحة هذه المعلومات .

يروي مراسلو الحرب البريطانيون ، ان (يونغسباند) رفض سحب قواته وصرح بانه اذا اصر التيبتيون على سد الطريق فانه سيعطي الاوامر الى الجنرال ماكدونالد لتفريقهم. وحين عاد الضباط التيبتيون الى معسكرهم للتشاور، طوق ماكدونالد الجيش التيبتي بقواته التي اخذت تزحف نحو الجدار ، دون ان يأخذا بعين الاعتبار عودة الضباط التيبتين لمتابعة المفاوضات ، مؤكدين انهم اعطوا رجالهم الاوامر بان لا يطلقوا النار .

ويصف الليوتنانت كولونل (وادل) من الخدمة الطبية بقية الاحداث : « بينما كان بعض الجنود التيبتيين يحركون بنادقهم المحشوة بطريقة متوعدة ، رأى الجنرال ماكدونالد

من الضروري تجريدهم من السلاح فأعطى الاوامر وتجمعت قواته قرب الجدار بالسلاح الابيض ، واخذت بعد ذلك تجرد التيبتيين الموجودين وراء الجدار من السلاح . وفجأة سمعت طلقة نارية فلما رفعت رأسي رأيت جنرال لاهاسا خارجاً عن طوره يتخاصم مع احد الجنود السيخ ، وحين رأى الجنود التيبتيون هذا المشهد ثارت ثائرتهم واندفعوا خارج المعسكر مطلقين نيران مدافعهم ، اجابتهم عليهـا القوات الانكليزية بالمثل ، وفي بضع دقائق ، انخذل التيبتيون كالارانب ، وأخذوا يتساقطون صرعى بالجملة ، وكانت نتيجة المذبحة من طرف الجيش التيبتي : ٣٠٠ قتيل، و٢٠٠ جريح و٢٠٠ اسير، اما الانكليز فلم تتعد خسائرهم ١٣ جريحاً !».

واما لاندون فيصف الحادثة بقوله :

« كان يبدو لي كأن الصراع يدور بين رجل ، وطفل، انه لمنظر مؤلم . ولا يمكننا الا ان نؤخذ بتأثير هذه الظاهرة الوحشية العنيفة لسلطة لا حدود لها ، تقضي على حيـاة مئات البشر . كان التيبتيون يتساقطون كالذباب ، وتتراكم جثث الموتى ، واجسام المشرفين عليه ، كما ان بعضهم يزحف بصعوبة ومشقة ، ليبتعد عن مدى النار ، وكنا نتنفس بارتياح كلما نجح احدهم في عبور الجحيم » .

غير ان شهادة وارن تناـقض فيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة ما جـاء في وصف لاندون : «لم يكتف الجيش

الانكليزي بابادة التيبتيين الموجودين قرب الجدار ، وانما طارد الهاربين منهم وقضى عليهم بدون اية رأفة، وكانت الجثث متناثرة على الطريق بمسافة عدة كيلو مترات .

بهذه الطريقة استطاع الأنكليز الوصول الى غيبانتسي ، ولكنهم اضطروا الى التوقف أمام القلعة ثلاثة شهور ، وكان التيبتيون يتفانون في الدفاع والمقاومة على الرغم من سلاحهم الضعيف الذي يتألف من مدافع وبنادق اكل الدهر عليها وشرب .

تسلقت الى قمة الحصن حيث لا تزال اثار مدفعيــة الانكليز بارزة فيها ، وقد اصطحبت معي (سونام باندزو) وهو عجوز يبلغ من العمر اربعة وستين عاماً ، اي انه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة حين وقعت كارثة (نمورو). وقد كان والد (سونام باندزو) ياوراً للجنرال المجروح، (ياتونغ) الذي نجــا من المذبحة باعجوبة بعد ان اصيب بجراح طفيفة . وقد قص علي (سونام) ما سمعه من والده :

« كان والدي حاضراً وشاهداً على جميع الاحداث التي جرت في (نمورو) خلال عام التنين لغاية (١٩٠٤). لم يتمكن الانكليز من المرور عنوة ، فارسلوا حينئذ في طلب النجدات للالتفاف حولنا من اليمين واليسار . كان لدينا ١٠٠٠ رجل لحماية مؤخرتنا ، بينما قبع ١٥٠٠ جندي خلف الجدار في انتظار الانكليز . حينئذ اقترح (يونغسباند)

وضابط بريطاني آخر اجراء المفاوضات ، واخذوا يناورون معنا ببراعـــة فائقة ، طلبوا منا مثلا اطفاء فتائل بنادقنا اثناء المحادثات لأن فتائل بنادقهم لم تكن مشتعلة . وقد اجبناهم الى طلبهم واطفأ جنودنا الفتائل . ثم اقترب القادة البريطانيون من جدارنا للمفاوضة حاملين معهم العلم الابيض، وفجأة سحبوا مسدساتهم من جنوبهم واطلقوا نيرانها على قادتنا . لقد قتل جنودنا باسلحة لم نكن نعرفها . وكان معلمي الجنرال ، الضابط الوحيد ذا الرتبة العالية ، الذي نجا من المذبحة » .

ومن الواجب على ان اقول بان الجنرال (نامسلينغ) قص علي في لاهاسا قصة مماثلة . وقد جمع جده بعسد المذبحة ، تنفيذاً لأوامر الدالاي لاما الثالث عشر ، جيشاً على عجل ، يتألف من رهبان دون تدريب عسكري ، ومن مدنيين مسلحين بالمدى والمطارق والسكاكين ، ولقي سبعة عشر فرداً من اسرة (نامسلينغ) حتفهم خـــلال لاشتباك مع القوات البريطانية .

ها انذا قد اوردت الروايتين ، الانكليزية والتيبتية ، حول الاحـــداث التي جرت في (نمورو) سنة ١٩٠٤ ؛ وقد اعترف الجميع ببسالة التيبتيين وقال عنهم كاندلر : « لم يصدف لأي انسان ان يحضر معركة غير متعـــادلة القوى ، يائسة ، تمثلت فيها التضحية بدون جدوى ، والشجاعة الكبيرة ، مثلما حدث في معركة (نمورو) »

غير انه استند بعـــد ذلك الى الحجة « الداروينية » التي كانت سائدة في ذلك العهد ، كي يبرر غزو التيبت وغيرها من البلاد المتخلفة اقتصادياً ، فقال : « يجب ان ينضم التيبتيون الى الصف ، انها ارادة البلد الاكثر تمدناً (الانكليز) ، سيد جميع هؤلاء بموجب عرقه الأكثر تطوراً ... »

وقفت اتأمل من ذروة الحصن المقبرة الصغـــيرة التي تحتوي على رفات الضباط البريطانيين الذين لاقوا حتفهم في الحرب على بعد بضعة آلاف كيلومتر من وطنهم ، كي يتحسس التيبت منـــافع « التبادل الحر » ! لقد نجح (يونغسباند) بدون اي شك في فرض اتفاقية تجارية ، منحت بريطانيا العظمى بعض الامتيازات في التيبت ، ولكن الاثر الوحيـــد الذي بقي في هذا البلد ، حالياً ، مقبرة (غيبانتسي) الصغيرة ! .

بعد ان غادرت الحصن ، بقي لي من الوقت ساعة او ساعتان لتتيح لي زيارة معبد البالكور ، الذي يعد من اشهر معابد التيبت . وقد لفت الرهبان نظري الى آثار ضربات سيوف على تمثال (بوذا) في احدى غرف المعبد، وقالوا ان هـــذه هي آثار مرور الجنود البريطانيين الذين نهبوا المعبد . وقد وجدت اشارة الى هذه الواقعة في كتاب (كاندلر) (اكتشاف لاهاسا) حيث يروي المؤلف انه حين رأى : « سجاجيد وتماثيل تزين ردهات (سيملاو

دار جيلينغ) فان الالسنة الشريرة لم تتردد في القول بأن الضباط البريطانيين نهبوا بكثرة معبد (بالكور) الذي يعد من اشهر المعابد التيبتية » .

عدت ادراجي الى (شيفاتزي) في المساء نفسه بعد ان انجزت رحلتي ذهاباً واياباً اثناء النهار ، وهذا شيء يبهر عيون التيبتيين لان قطع هذه المسافة على الحصان يستغرق اسبوعاً . وقد انتشر نبأ مرور سيارة الجيب عند الذهاب في جميع انحاء المنطقة ، ووجدنا في طريق العودة جماعات من التيبتيين يتجولون على جانبي الطريق املاً في ان يرونا ونحن عائدون .

كان هناك بعض الصبية الصغار المتحمسين يتراكضون امام السيارات ، اما الرجال فكانوا يقفسون جامدين لا يصدقون اعينهم ، يردون لنا التحية نادراً ، منشغلين برؤية رجال عاديين يمتطون هذه المراكب العجيبة .

كان الليل قد حل حين وصلنا مدينة (شيفاتزي) ، ولكني استطعت ان اميز على ضوء انوار السيارات، عدداً من السكان في الشوارع يتفحصوننـــا بفضول مقترن بالاستغراب .

كانوا قد سمعـــوا اننا نعتزم قطع المسافة ذهاباً واياباً خلال يوم واحد ولذلك فان اهالي شيفاتزي وهم واقفون في الظلام شاهدوا بأم اعينهم المعجزة تتحقق !...

الفصل السابع عشر

وليمة لدى النور الذي لا حدود له

ان معبد (تاشيلمبو) مركز اقامة البانشن لاما الشتوي ، افخر بكثير من معابد لاهاسا ، ونحن نجد فيه قبر الدالاي لاما الثامن المشهور بانه اجمل قبور العالم الاثرية وأغناها من الناحية التزيينية . وبغض النظر عن جماله فان القبر يتألف من كتلة ذهبية وفضية محلاة بالاحجار الكريمة على ارتفاع يزيد عن عشرة أمتار ،وفي نفس المعبد يمكننا رؤية صخرة من المرمر مسح بعض الانخفاض الذي يفترض انه البصمة السحرية للبانشن التاسع عندما كان لا يزال طفلاً .

وعلى بعد قليل من هذا المكان نجد احدى اعاجيب العالم في فن النحت . انه تمثال لبوذا من البرونز

المذهب يبلغ ارتفاعه ١٣٠ قدماً ويشغل مكان ٧ معابد صغيرة ترتكز فـوق بعضها البعض . دخلت اولاً الى الطابق السفلي حيث استطعت رؤية قاعدة التمثال . وحين رفعت رأسي الى الاعلى لمحت اليد اليسرى لبـوذا ترتاح بهدوء على فخذه ؛ وفوق ذلك تركز نظري على اليد اليمنى التي كانت تلمع عـلى شكل حركة منح البركات ، وتمتعت بعد ذلك مبهوراً بالنظر الى قمة التمثال حيث توجد هالة من نور تنبعث من نوافذ الطابق السابع ؛ بالوجه العالي ، اللاواقعي ، بابتسامته الغامضة العميقة . وقد غمرتني هـذه الرؤية بشعور من الروعة أدهشتني شدته . ويمكن الوصول الى بوذا بواسطة سبع قاعات دائرية متصلة بسلالم خاصة . وفوق القاعة العليـا التي تحيط ذروة رأس بوذا ترتفع السقوف الذهبية التي تفوق بعددها وضخامتها سقوف (بوتالا) . وقد صنع تمثال بوذا بناء على طلب البانشن لامـا التاسع قبل ذهابه الى المنفى .

لا أعلم اذا كان هنالك اجنبي حظي مثـلي بامتياز زيارة المساكن الخاصة للبانشن لاما . ان كل غرفة مزينة كالمعبد الصغير ، بالتماثيـل والرسوم واللوحات والكتب المقدسة . ويمكن للزائر ان يتمتع في البهو الخاص بالبانشن لاما بمنظر خزانة زجاجية ، تحتوي على آلاف التماثيـل الصغيرة المصنوعة من البرونز ، والى جانبها رفـاس

انكليزي الصنع ، وساعة افرنسية مزينه بعصافير ميكانيكية صغيرة الحجم تغرد على اغصان اشجار مصغرة الحجم .

أما في غرفة النسوم المكسوة بالصور من جانب وبالزجاج من الجانب الآخر فان البانشن لاما لا يجد فيها العزلة التامة . وقد لاحظت فوق سريره الضيق المصنوع من الخشب رسماً يمثل بوذيين متعانقين في وضع جنسي . غير ان (البوذا) الحي هو فوق دوافع الغريزة ؛ أما الشيء الحديث الوحيد الذي لاحظته في غرفة البانشن لاما ، فهو جهاز الهاتف الموضوع على طاولة صغيرة بجانب السرير .

لم تكن اقامة البانشن لاما الصيفية مفتوحة في عام ١٩٥٥ بسبب الاضرار اللاحقة بها من جراء فيضانات العام السابق . ولذلك فقد دعيت الى مقابلة في مسكنه الحالي الذي يبعد ما يقرب الكيلومتر عن مدينة (شيفاتزي) .

ما ان نزلت من سيارة الجيب ، حتى اقترب مني المصور الرسمي للبانشن كنت قابلته في حفلة راقصة الليلة الماضية ، وقد تحادثنا بعض الوقت ونحن نفرغ في اجوافنا عدة كؤوس من نجعة شيفاتزي المشهورة بجدارة . كما صادفت كذلك امام مسكن البانشن ، (دي جيم زازا) رئيس لجنة حكومة البانشن ، الذي قضى السهرة معنا كذلك ليلة البارحة ، والذي كدت لا اتعرف عليه في لباسه الوطني الفاخر ، اذ كان يلبس في الليلة السابقة الزي

الغربي ، وهذا امر استثنائي بالنسبة لاهالي التيبت . وقد قادني الى لقاء البانشن لامـــا بصفته مترجماً . الا ان البانشن لاما يستطيع بسهولة ان يستغني عنه ، لأنه يتكلم بلاقة لغة الهان ، ولا شك ان وجود مترجم خـــلال الاحاديث الرسمية ، يعود الى متطلبات الاتيكيت .

صعدت بصحبة (دي جينم) الى الطابق الثاني ، خلال سلالم مظلمة ، واجتزنا في طريقنا عدداً من الدهاليز كنا نصادف فيها بعض الرهبان يقومون بطقوسهم الدينية. واخيراً ادخلت لدى البانشن لاما الذي كان يقف ماداً نحوي يديه كي اضع عـــلى قبضتيها (الهاتا) الحريري الابيض .

للبانشن لاما عدة القاب ، منها العاقل الكبير الثمين (بانشن ريمبوش) ، والنور الذي لا حـــدود له ، وكذلك تقمص روح الاله (أوبام) . وهو شاب طويل القامة ، هادىء ، له وجه متطاول الشكل ، ذو تقاطيع ناعمة ، اما شعره فقد كان قصيراً ، بطول ثلاثة سنتمترات كما هي العادة بالنسبة للبانشن لامـــا . كان يرتدي الزي التقليدي الخمري ويترك احدى كتفيه مفتوحة . وعندما شد على يدي بقبضتيه مصافحاً شعرت انها لا تقـــل حرارة وعزماً عن قبضة الدالاي لاما .

واللامان الاكبران متقاربان في العمر ، فقـــد كان الدالاي وقت زيارتي ، يبلغ العشرين اما البانشن ، فقد

كان في التاسعة عشرة من عمره ، وكلاهما طويل القامة ، الا ان البانشن يزيد بعض الشيء طولاً عن الدالاي . وبدا لي في ذلك الحين انمظهر البانشن الذي يكرس حياته للقضايا الروحية ، يعطي الزائر شعوراً بأنه اكثر ابتعاداً وانطواء على نفسه من الدالاي لاما .

أدخلني الدالاي لاما الى بهو صغير وجلس امام طاولة وضعت عليها اقداح الشاي وبعض الفواكه . وظـل (دي جينم) واقفاً الى يسار البانشن ، امـا المصور الرسمي ، فقد تحول بهذه المناسبة الى سكرتير ، فتربع على الارض ووضع قبعته بجانبه ، ثم أخـذ يدون كل كلمة من كلمات البانشن لاما .

بدا لي ان تزيين غرفة البانشن اكثر قدماً من غرفة الدالاي لاما ، وهذا يظهر من بروكار النوافذ ، ودهان الجدار . وفي ركن من البهو يوجد جهاز هاتف موضوع بقرب سرير ضيق . وكان سيادته يحمل في معصمه ساعة سويسرية ذهبية تلتف حولها مسبحة .

تحادثنا ، ونحن نتناول الشاي احاديث مختلفة ، عن حـالة الطرق ، وعن شيفانزي ، وعن السفر . كان (دي جينم) يترجم كلام البانشن الى الصينية بامانة . وشعرت في البدء ان صوت البانشن متهدج بعض الشيء ولكنه ما لبث ان عاد طبيعياً مع امتداد المناقشة . وكان هناك ظل من ابتسامة يرتسم على شفتي البانشن لاما خلال

المحادثة وكأنه يشير في قرارة نفسه لبعض التسلية الغامضة التي لا يريد ان يكشف عنها .

وجهت الحديث تدريجياً نحو نفس المواضيع التي طرقتها مع الدالاي لاما . كنت احرص على معرفة وجهة نظريهما: وقد صرح البانشن ، بان المستعمرين تسللوا الى الصين في القرن الماضي ، واجتاحوا التيبت ، وطبقوا بصورة عامة مبدأ : « فرق تسد » . وقـد ادت سياسة الحكومات السابقة واعمال الكومنتانغ الى هدم وحدة مختلف القوميات الصينية .

أضاف البانشن بأن حكومة الصين الشعبية اعطت اوامرها الى الجيش الصيني بدخول التيبت « للمحافظة على وحدة الصين السياسية ، ولتحرير الشعب التيبتي بنفس الوقت . وقد طلبت الحكومة المركزية بنفس الوقت من الحكومة التيبتية اجراء المفاوضات ، وعدت انا شخصياً الى التيبت بعد توقيع اتفاقية ١٩٥١ . »

— بعد عودة سيادتكم من الصين ؛ ما هي حالة منطقة (تسونغ) وكيف طبقت الاتفاقية ؟

— يجب ان اعترف بانه منذ اربع سنوات والضباط والرجـال التابعون لجيش التحرير الشعبي ، وموظفو حكومة بكين ، يمتثلون بامـانة الى الاحكام المبينة في صلب الاتفاقية . لقد احترموا الدين والتقاليد التيبتية ، وبنوا المدارس وحافظوا على المعابد . نحن نملك في هذا

اليوم ، الصحف ، ومكاتب البريد والشركات التجارية العائدة للدولة ، والمستشفيات ، والمصارف ، ودور السينما. وتساعد الدولة اصحاب الحرف ، والتجار ، والفلاحين بواسطة القروض . اما ضحايا فيضانات العام السابق فقد مدت لهم يد المساعدة على نطاق واسع من قبل المؤسسات العامة » .

لم تبد على البانشن لاما وهو يتكلم أية بـادرة من بوادر التردد . وكنت اجـد صعوبة كبيرة في تسجيل كلماته ، لاني كنت احرص عـلى مراقبة حركاته وهو يتكلم ، بينما كنت أرفض الدعوات المستمرة من كبار الموظفين لارتشاف مزيـد من الشاي . واستطرد البانشن لاما قائلاً :

« اتخذنا خلال اقامتي في بكين في السنة المنصرمة ، قرارات هامة حول العلاقات بين مقاطعتي تسانـغ ولاو ، (الأولى يسيطر عليها البانشن لاما والاخرى تحت سلطة الدالاي لاما) وقد حضر الرئيس ماوتسي تونغ الاجتماعات بالذات . كما تم الاتفاق على تشكيل لجنة تكلف بوضع الخطط اللازمة ، لتشييد اقليم التيبت المستقل . ومن الواضح ان اتفاقية ١٩٥١ أتاحت للتيبت ان تخطو خطوات كبيرة نحو التقـدم والتطور في شتى الميـادين الثقافية والسياسية والاقتصادية . كما ان المستوى المعاشي للسكان تحسن اكثر من قبل ، وارسخت دعائم

متينة لتأمين سعادته المستقبلة » .

لقد جرت عملية تقمص اللامويين الاكبرين في مقاطعة (تشينغهاي) ، ولكن الدالاي لاما شب وترعرع في مدينة لاهاسا ، في الوقت الذي كان فيه البانشن لاما في المنفى بعيداً عن التيبت حتى عام ١٩٥١ . وقد قام البانشن لاما بزيارتين طويلتين الى الصين ، كانت الأخيرة برفقة الدالاي لاما :

« زرت عدداً من المدن الصينية مع الدالاي لاما ، وقد يتبين لنا ان تغييرات جذرية حدثت في الصين ، خلال مدة قصيرة وبشكل يبعث على الدهشة . كنا شهوداً لولادة عالم جديد ، وقد غامرتنا في ذلك الوقت آمال كبيرة بالنسبة للتيبت . »

سألت سيادته عن وضع الحريسات الدينية في الصين فأجابني :

« ان هذا السؤال له اهمية كبيرة ويجب علينا ان نتفحصه بكل اهتمام . استطيع ان اؤكد لك وجود اختلاف جذري بين الحرية الدينية الحالية والاضطهاد الديني ، الذي كان يسود الصين خلال حكم الكومنتانغ ، لقد تأكدت من ذلك شخصياً . فالمعابد تصان في يومنا هذا بكل عناية ، واضرب مثلاً على ذلك معبد (لينغ ينغ) في (هانتشر) حيث يعاد ترميمه وتصيلحه بكامله . وممارسة الطقوس الدينية تجري بحرية تامة . تحادثنا في السنة الماضية بشأن

الديانة البوذية مع عدد من المؤمنين نساءً ورجالاً ، كما اتيحت لنا الفرصة لمنح بركتنا الى الرهبان والمدنيين . اننا بالاتفاق مع الشعب نصادق ونعتنق نفس السياسة الدينية للصين الجديدة » .

تكلم البانشن لامـــا بعد ذلك بكل حرارة عن صداقته للدالاي لاما . وقد ذكرته باني التقيت بهما في بكين خلال استقبالها عام ١٩٥٤ ، واضفت على ذلك بأني لم ألاحظ أية اشارة تدل على وجود اختلاف بينهما (من المعروف انه وقع خلاف في المدة الاخيرة بين البانشن لاما والدالاي لاما ، وانه بينما التجأ الدالاي الى الهند مؤخراً ، نصب البانشن رئيساً للحكومة التيبتية خلال الحوادث الاخـيرة) فأجابني باسماً : « هذا طبيعي ! واكرر عليك القول بان أسباب خلافي مع الدالاي لاما في السابق كانت تعود الى حدث تاريخي استغله المستعمرون . وقد تم القضاء على هذه المناورات بعد ولادة الصين الجديدة وتحرير التيبت ، وهذا ما اتاح لنا توطيد دعائم العلاقات الطيبة بين الدالاي لاما وبيني ، والتي لا تزال تتوطد باستمرار . ولم يحدث ابداً في تاريخ التيبت ان توطدت الوحـدة الداخلية في التيبت كما هي عليه الآن » .

ثم أخلد البانشن لاما الى الصمت بضع لحظات وكأنه يفكر ويشجع أفكاره ، قبل ان يدلي بالتصريح الآتي : « حين يكون الوطن منقسماً عـلى بعضه البعض ، فان

الاشتراكية لا يمكن ان تتوطد رغم حسن نية هؤلاء الذين يأملون تطبيقها . ولكن منذ ان حل الوفاق بين الدالاي لامـــا وبيني ، اصبح في وسع الشعب التيبتي ان يطبق الاشتراكية وان يبني التيبت الجديدة السعيدة في ظل الوطن الام . ان مصالحتي مع الدالاي لاما قضت تماماً عـــلى مؤامرات الاوساط الاستعمارية ضد الدين وستزيد وحدتنا من قوة الديانة البوذية ، ولا يمكن تفريق الحرية الدينية عن السياسة الرسمية الحكيمة في الصين » .

مشيراً بعد ذلك الى العلاقات بين الهند والصين ،لاحظ البانشن ان مبادىء التعايش السلمي الخمسة ، المحددة من قبل (شوان لاي) و (نهرو) جمعت بـــين بلدين كبيرين في سبيل تأمين السلام الذي لم يكن في وقت من الأوقات متيناً في آسيا كما هو عليه الحال الآن. المثل المضروب من قبل الهند والصين يبين كيف يمكن التوصل الى حل الخلافات الدولية بواسطة المفاوضات السلمية » .

فوجئت بدعوتي لتناول الغداء على مائدة البانشن لاما ولم اكن حقاً انتظر مثل هذا الشرف العظيم . وقد جلسنا الى طاولة فاخرة ، وكم كانت دهشتي عظيمة حين لمحت في وسط الطاولة بين اصناف الفواكه والكعك علبة سجائر انكليزية من ماركة (ستيت اكسبرس ٥٥٥ ا)

بعد ان شربنا عدة كؤوس من عصير البرتقال نخب بريطانيا العظمى ، التفت البانشن نحوي وقال لي : « نشرت

في الغرب تقارير عديدة ، وغير صحيحة عن التيبت والشعب التيبتي : ومن الاهمية بمكان بالنسبة لنا ان نرى هذه الاحكام مصححة بالوقائع الثابتة . وسأكون مسروراً اذا استطعت اعادة الحق الى نصابه ، لأني متأكد ان العلاقات بين التيبت وبريطانيا العظمى ستتحسن بنتيجة ذلك » .

ثم تناول البانشن الشوكة ودعانا للبدء في الطعام . وكان الغداء يتألف من اطباق صينية نادرة ولذيذة ، وعندما رآني البانشن احاول ان امسك باعواد الاكل على الطريقة الصينية ، أشار الي انه هو نفسه لا يتقن استعمالها كما يجب ، وحينئذ تناول قطعة من الكعك ووضعها في طبقي ؛ وهذه الحركة تعتبر في الشرق علامة اعتبار ومجاملة رقيقة خاصة . كان البانشن يتحدث بلطف ويأكل قليلاً ، وكان من الصعب علي ان اعلم وسط هذه الحركة الصباحية للاطباق والملاعق والسكاكين التي كانت تبدل باستمرار ؛ فيما اذا كان البانشن لاما يأكل حقيقية أم لا ! . وخطر لي أن المظهر الروحاني ، والابتعاد والعزلة التي تصدر عن الآلهة الاحياء ، تعود بعض الشيء الى عدم اهتمامهم بالاعمال العادية في الحياة ، كالأكل والشرب . ولا شك ن اكثرية الشباب التيبتي الذين هم في عمر البانشن لاما ، ما كان في وسعهم ان يقاوموا اغراء طعام لذيذ كهذا الطعام ، خاصة بعد جهد كبير مبذول في التركيز خلال حديث رسمي طويل .

بعد الانتهاء من الطعام قال لي البانشن لاما وعلائم الخطورة بادية على وجهه : « ارجو ان تبين في مقالاتك عن التيبت ان هذا البلد مع جباله وانهاره يشكل جزءاً من الجمهورية الشعبية الصينية » . وضرب لي بعد ذلك مثلاً على التقدم التكنيكي في التيبت : انشاء طريقين جديدين ، طريق (سيكانغ – تيبت) ، وطريق (تشينغهاي – تيبت) التي شقت على طول آلاف الكيلومترات في الجبال الشاهقة الارتفاع (على سقف العالم) . واضاف ان تحقيق هذه المشاريع الضخمة يقرب من المعجزات .

وكما هي العادة بالنسبة للمطبخ الصيني ، انتهت الوليمة بتقديم الحساء والرز التقليدي . وحين اجبت البانشن لاما على دعوته لي بتدخين لفافة من التبغ ، بأني قررت منذ مدة الامتناع عن التدخين اجابني بقوله ، : « اننا ننتمي الى نفس الطائفة . »

كان الوقت قد حان لأستأذن في الانصراف ، من مقابلة هذا الشاب المثقف الجذاب ، الذي وضع (هاتا) على عنقي حين خرج لتوديعي ، وشد على يدي مصافحاً امام المصورين : كنت لا آمل ان اراه قبل مجيئه الى بكين لحضور المؤتمر الوطني للشعب او مجلس الدولة .

وبعد لحظة سيعود (الاله – الملك) ، وحيداً الى حياته المتزمتة الجدية ، المكرسة للطقوس المعقدة التي يتطلبها تناسخ بوذا الابدي ...

الفصل الثامن عشر

الارقاء الزراعيون

تختلف التقـديرات حول عدد سكان التيبت اختلافاً كبيراً فيتراوح عدد سكانها بحسب هذه التقديرات بين ۸۰۰ الف وخمسة ملايين نسمة. وترجع هذه الاخطاء والفوارق بصورة خاصة الى ان مليون نسمة فقط من هذه الملايين الخمسة يقطنون في التيبت ذاتها اما باقي السكان فموزعون على مقاطعات سيشوان ويوناث وتشينغهاي المتاخمة . هؤلاء الناس المنحدرون من اصل تيبتي لا يتقيـدون بالتقاليد والاعراف السائدة في التيبت نفسها . ورغم كونهم من اللامويين فانهم لا يعترفون بسلطة لاهاسا عليهم ولا يخضعون لنفس النظام الاجتماعي .

هذه هي نسب التوزيع لسائر الفئات الاجتماعية للتيبتيين المقيمين في التيبت :

ارقاء زراعيون ٦٠٠،٠٠٠

ارقاء رعاة ٢٠٠،٠٠٠

كهان ١٥٠،٠٠٠

نبلاء ، تجار ، حرفيون ، شحاذون ٥٠،٠٠٠

هناك ١٧٠ اسرة نبيلة وغنية تخضع للدالاي لاما من بين مائتين تكوّن الطبقة النبيلة المالكة للثروات . ويعيش سُبع السكان في المعـــابد اي ما يعادل رجل من اساس اربعة رجال .

ان الصورة المعروفة عن التيبت هي كونها بلاد الرعيان؛ ان هذه الصورة تفسر ان العمال الزراعيين هم اهم فئـــة اجتماعية . فالفلاحون يشكلون مع مربي الحيوانات دعامة المجتمع التيبتي وهم جميعهم ارقاء مرتبطون وراثياً بالأرض والقطعـــان اي انهم اقنان ، وقد قال لي ذات يوم احد الكهان المرموقين: « كيف يمكن للحياة ان تدوم بدون ارقاء لا يمكن ابداً ان نعيش بدونهم » .

ان النظـــام العقاري السائد في التيبت معقد لان النظام العام لا يُطبق بصورة منظمة . فكل معبد يطبق شريعته الخاصة ضمن اطار النظام العام كأنه دولة داخل الدولة ؛ له شرطته الخاصة وقوانينـــه وعدالته . هذه الدولة الفعلية موجودة بشكل خاص في الاقطاعات الخاصة بالنبلاء . والارض كلها تقريباً تقع تحت سيطرة المعـــابد والنبلاء والحكومات المحلية التابعة للدالاي والبانشن لاما .

لا يتلقى الفـــلاحون اجورهم نقداً وعليهم ان يقدموا

لسادتهم حصة من الحصاد مقابل اعطائهم حق زراعة الارض، بالاضافة الى ذلك يُجبر الفلاحـــون على ان يقدموا مجاناً بعض الخدمات كتموين المياه والمحروقات واصلاح البيوت وبناؤها . ان مجموع هذه الاعباء يشكل ما يسمى بالأولا التي ذكرناها سابقاً . ولا يمكن لأي رقيق ان يتخلص من السخرة مهما يكن وضعه ، لأن خدمات الاولا تقرهـــا الاعراف المحلية او يتطلبها المالك نفسه ، وان اقسى انواع السخرة هي التي يتطلبها سفر أحد الموظفين الكبار وحينئذ لا ينبغي على الفلاح ان يضع حيواناته تحت تصرف المسافر لنقل حوائجـــه فحسب بل هو مضطر الى مواكبته على حسابه الخاص . فاذا كان الطريق وعراً ولا يصلح لسير الحيوانات فيجب استبدال الحيوانات بحمالين من البشر.

يستند الاقتصاد التيبتي بشكل خاص على الزراعة وتربية الحيوانات والمواشي والنظام العقاري السائد فيها اقطاعي في جوهره . اما نسبة الاراضي المزروعة فضئيلة جداً : ان طبيعة الارض تسمح بتوسيع الاستثمار توسيعاً كبيراً غير ان العائق الاساسي هو قلة اليد العاملة. ويتعرض الفلاح الذي يحاول مبارحة الارض لأقسى العقوبات . ومع ذلك يهرب الكثيرون منهم تهرباً من الديون التي ليس بوسعهم دفعها . وتصادف هذه الفئة من الفلاحين الهاربين في منطقة غينتاز خاصة . والديون تشكل اكبر عبء يثقل كاهـــل الفلاح الذي عليه ان يقدم اتاوة ثابتة حتى ولو كان المحصول

رديئاً . وغالباً ما يضطر الى استدانة الحبوب بفائدة قدرها خمسون بالمئة . حتى ان هناك عائلات مدينة بمائتين وخمسين طناً من الحبوب . هذا الدين ينتقل من جيل الى جيل بصورة وراثية . فيصبح الهرب من المنطقة في اغلب الاحيان الحل الوحيد . وعلى الهارب ان يبدأ من جديد ولكن يستحيل عليه العمل في ارض بكر لأن اصناف الملاكين الثلاثة : المعابد والنبلاء والحكومة يحولون دون ذلك .

لقد درست بامعان حالة العجوز سونام النموذجية ، انه من ارقاء الارض « المتوسطين » ويستطيع ان ينجو بريشه في السنين الطيبة ، وهناك من هم اسوأ حالاً منه بكثير . يقطن هذا العجوز في بيت صغير مع زوجته واطفاله . وسمي العجوز لأن وجهه اكتسب تجاعيده وخطوطه الكثيرة بفعل الهواء اللافح والشمس المحرقة اما عمره فلا يتجاوز الخامسة والاربعين . يعمل سونام في حراسة اربعة هكتارات تقريباً تخص نبيلاً يقيم في شيفاتزي ، شأنه في ذلك شأن آبائه الذين عملوا من قبله في هذه الارض . وقد امضيت معه النصف الثاني من النهار لنحسب مجموع محصوله ومجموع الخدمات والاجور التي عليه تأديتها ، فتبين لي ان دخله قبل عودة البانشن لاما عام ١٩٥١ لم يكن يتجاوز ربع المحصول اما ثلاثة ارباع عمله وعمل اسرته فكان يتسرب الى الملاك باحدى الطرق .

وفي عام ١٩٥٣ قرر البانشن لاما مع مستشاريه ان

تكديس الديون ، بعد ان صار مشكلة مستحيلة الحل بالنسبة الى الفلاح ، اصبح يعيق ازدهار الزراعة ونموها : ففحصت كل حالة على حدة ثم الغيت الديون بالنسبة الى بعضها الغاء تاماً وخفضت تخفيضاً محسوساً بالنسبة الى بعضها الآخر ؛ كما الغيت بعض الرسوم في الوقت نفسه . من الواضح ان السياسة الحكومية الجديدة لم تطبق تمام التطبيق من قبل كل الملاكين . لأن المراقبة المجدية كانت شبه مستحيلة وكانت القضية قضية ضغط معنوي من طرف السلطات ، ففي حالة العجوز سونام مثلاً ، الغيت الفوائد التي كان يدفعها عن دين قديم فارتفع دخله السنوي بنسبة ٢٥ بالمئة اي انه صار يأخذ لنفسه ٣٣ بالمئـــة من المحصول . فاشترى نتيجة لذلك عجلاً كما اخذ يضع المشاريع لشراء بقرة حلوب. ويستطيع اليوم اذا ما باع الفائض من حبوبه ان يشتري من حين لآخر قطعة من اللحم وان يزيد مشترياته من الشاي والزبدة . ان الشاي والزبدة هو نوع من الترف بالنسبة الى عائلة سونام التي تكتفي بالعيش على التسامبا وحساء اللفت وخبز الحنطـــة السوداء مع نوع من الجبن الرديء احياناً .

لايعرف سونام الكتابة وهو لا يأخذ الحمام الا نادراً لأن المواد الدهنية المجتمعة فوق جسمه تشكل طبقة مانعـة تحفظه من البرد الشديد اللافح والشمس المحرقة والزوابع الرملية في هذه المناطق القاسية الاقليم .

تقوم كل اسرة بحراثة قطعة من الارض يقدر متوسط انتاجها بخمسين كنتالاً من الحَبّ . إلا أن الوضع العام للفلاحين قد تحسن اعتباراً من عام ١٩٥٣ مثلما تحسن حال العجوز سونام وذلك اثر تصفية الديون القديمة والاعفاء من بعض الرسوم كما ذكرنا .

قمت بزيارة قرية صغيرة تابعة للدالاي لاما وهي صورة نموذجية عن مجموع القرى . تعيش هذه القرية على ثرواتها الخاصة اي ان اقتصادها من النوع المغلق وتقوم بمبادلة الشعير بالزبدة والشاي والملح . ان نسج الاقمشة وصنع الاحذية يجريان في المنزل . وقطع الاثاث الوحيدة المجموعة في بيوت الفلاحين الميسورين نسبياً يتكوّن فقط من بعض الكنبات المحشوة بالقش والمغلفة بالقماش العادي . أما الفلاحون الفقراء فلا يقومون بنسج أثوابهم بل يصلون قطع القماش البالي والجلود ببعضها . والبيوت التي يبنيها الارقاء ترتبط بالارض وبالتالي تخص الملاكين . ويقوم الرجال بحراثة الأرض وبالنقليات وشراء الحاجيات وبيعها أما النساء فيحلبن البقرات ويبذرن الحب ويرفعن الاعشاب الداخلية .

تتكون اغنى اسرة في القرية من خمسة عشر شخصاً ينضم اليهم تسعة عمال . يقوم بادارة هذه الاسرة رئيس للارقاء من عادته التنازل عن الاعمال الصعبة للآخرين ويلبس ثياباً من القماش الصوفي الجيد .

وهناك أيضاً عائلتان اخريان تعيشان في بحبوحة نسبية

ويمكنها استخدام بعض العمال الزراعين والحصول على ارباح طفيفة من السنوات الخصبة . ان الارقاء المستخدمين عند هذه الاسر الثلاث ليس لهم سيد ويدعون غالباً «باليتامى» . وهم يُضمون الى الخدمة بشكل دائم وعلى ابنائهم البقاء في خدمة العائلة . ويتغذون ويسكنون ويلبسون على حساب العائلة ولكن لا يقبضون أبداً اجوراً نقدية ؛ واذا ما شاخوا واستحال عليهم متابعة العمل فان الاسرة تبقيهم في كنفها . ان هذه الفئة من العمال تخص بالاحرى الاسرة التي تستخدمهم ولا علاقة لهم بالنبلاء فهم إذاً أرقاء الارقاء ومن عادة الفلاحين استخدامهم في اداء خدمات الـ «أولاء» عوضاً عنهم .

ويلي ذلك ثلاث أسر اخرى أعسر حالاً لذلك تضطر أن تعمل في الخارج لتكفي حاجتها وتغطي عجز ميزانيتها وأما الاسر الاربع الباقية من سكان هذه القرية الصغيرة فتعول بصورة اساسية على الخدمات التي تؤديها في الخارج إلا انها مع ذلك مجبرة على تأدية الأتاوات السنوية تماماً مثل الآخرين .

يتناول الفلاحون الميسورون التسامبا بالشعير والبطاطا واللخناء واللفت والشاي بالزبدة وبصورة عرضية اللحم ؛ اما فقراء الفلاحين فيكتفون بتناول التسامبا بالفاصوليـاء وشوربة الخضار .

ان القروض الزراعيـة المعفية من الفوائد والتي تقررت

اعتباراً من عام ١٩٥١ قد حسنت من وضع الفلاحين تحسيناً عظيماً . وان اكبر كميات من السلف تقدم لأصغر الفلاحين . وتسهر على تحويل القروض العينية لابـذار المصارف الزراعية . أما توزيعها فتشرف عليها لجان محلية وبعض الكهان رفيعي القدر . ثم تعمد هذه اللجـان الى عقد اجتماعات ترأسها السلطات المدنية والكهنوتية لعدة قرى وينضم اليهـم ممثلو المصرف الشعبي والحزب الحاكم . ويقوم بتوزيع القروض الموظفون التيبتيون . ولا يقبـل الارقاء سلفات الحكومة الا بعد الحصول على موافقة اسيادهم وتنضم النساء الى هذه الاجتماعات العامة لأنهن يساهمن في أعمال البذار والحصاد . ان الديانة البوذية لا تحدد وضع المرأة إلا ان الوضع الاجتماعي للنساء في التيبت احسن من وضع النساء في أغلب البلدان الاسيوية الأخرى .

نلاحظ استناداً الى ما ذُكر مدى الإهمال الذي يسود الزراعة . فالنظام العقاري السائد ليس من شأنه تشجيـع الإنتاج ورفع المردود وادخال التحسينات عـلى الطرائق المتبعـة . والمثقفون الوحيدون مـن بين أهـل التيبت هم من النبلاء والكهان ولا يهتمون بالشؤون الزراعية بل يكتفون بما يأتيهم من عائدات سنوية بصفتهم مـن اصحاب الاملاك .

وهناك في لاهاسا وشيفاتزى مزرعتان تجريبيتان تبذلان

جهداً كبيراً في سبيل التجديد . وقد زرت مزرعة لاهاسا التجريبية التي بنيت عام ١٩٥٣ . لقد وصل الافراد الصينيون العاملون فيها على ظهور الجياد حاملين معهم مجاهرهم وأدوات القياس لأن طريق السيارات لم تكن موجودة عام ١٩٥٣ . وابتدأ العمل تحت الخيام في نفس البقعة التي تشغلها حالياً ابنية بيضاء ضخمة فيها أكثر من ستين غرفة مستخدمة كمخابر وقاعات عمل ومستودعات ومساكن .

وقد تحدثت مع المدير المعاون وهو مهندس زراعي متخرج من جامعة نانكين وكنا في طريقنا لعمل جولة ضمن المزرعة النموذجية .

سألت المهندس :

ـ كيف يمكن تحسين شروط حياة الشعب التيبتي مادامت الارض فقيرة والاقليم قاسياً جداً . أليس من الضروري استيراد كل المواد الزراعية ما عدا اللحم ؟

ـ ان سؤالك يعبر عن الرأي السائد حول ثروات التيبت وهو رأي كنا نتبناه يوم وصولنا الى هذه البلاد . في الواقع ان النباتات التي نخرجها من هذه الارض لاتقل عن مثيلاتها في الصين إن لم تكن أحسن في بعض الاحيان وعلى العكس مما يظن الناس ، يبدو ان الارتفاع يساعد بعض المزروعات .

ثم شرح لي بعدئذ كيف ان المزرعة النموذجية لجأت

الى اجراء التجارب على ٨٤ نوعـاً من النباتات و ٤٤٠ صنفاً من البذور . فظهر لها ان مثالب المضاب المرتفعة يمكن التغلب عليها كما انه يمكن الاستفادة من بعض خصائص التربة والشروط الجوية . ثم اراني حقـلا من الحنطة كانت سنابله تصل الى الكتف . كما رأيت ايضاً اصنافاً عديدة من الشعير قاسية وغنية بالحب . وكان هنالك اصناف ضخمة من اللخناء واللفت حتى ليحتاج حمل الواحدة من الصنف الثاني الى تعاون شخصين . كما عرضوا علي غرسيات من شجر الصفصاف تعد لحماية المزروعات من الهواء العاصف في الجبال .

قال لي مرافقي : « ان الاشجار والمزروعات المستعملة كستار واق اشياء اساسية جداً إذ بامكاننا عمل العجائب في بعض المناطق . ان هذه الخضار والثمار رغم ضخامتها لا تفقد شيئاً من مذاقها اما النازلة الكبرى فهي حبات البرد والى الآن لم نتمكن من ايجاد وسيلة لمكافحتها . الا اننا سننجح » .

لم استطع التغلب على دهشتي من رؤية البذور ناميـة على ارتفاع ١٢٫٨٠٠ قدم . ثم اشار المهندس الى بطيخة ضخمة امتداد قطرها يبلغ القدم ، استحصل عليها بالمصالبة بين صنف من البطيخ السوفياتي والكوسا التيبتية .

كان يبدو على المدير المساعد انه يستطيع تحقيق حلمه وحلم مساعديه في تجديد الطرائق الزراعية في التيبت ، إلا

انه اعترف بصراحة ان امامهم طريقاً طويلاً . فمند ١٣٠٠ عام تجمد النظام الاجتماعي في التيبت في عادات آلية راسخة الجذور . والدين يحرم استعمال مبيدات الحشرات ويشجب الحراثة العميقة التي من شأنها ازعاج الارواح المقيمة ضمن الارض . زد الى ذلك ان ليس من صالح الارقاء زيادة الانتاج لأنهم سيضطرون الى زيادة عملهم دون مقابل.

واستطرد قائلاً : « علينا ان نجد الحلول لمشاكل عويصة ولكن لا يمكن القول بان حلها مستحيل ، يقتضي الأمر ان نعمل على مراحل . وفي اعتقادي ان المسألة الاساسية هي غرس بذور من نوع جيد وانباتها بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفنا . سوف نعمل على ادخال الآلات الى هذه المزرعة وعلى تطويرها . كما ينبغي استحداث مزارع اخرى وتوزيع اكبر كمية ممكنة من البذار الجيد على الفلاحين في شكل سلف تؤمنها مصلحة الاقراض الزراعي .

ان من اهم الموانع التي تقف في طريق استثمار الثروات الزراعيـــة في التيبت نقص اليد العاملة فيها . وان الوضع آخذ في التأزم بسبب وجود ربع السكان في المعابد وهم لا يساهمون في اكثار النسل ولا في استصلاح الارض ؛ ان زيادة اليد العـــاملة ستتيح استثمار مناطق شاسعة من الأراضي المهملة .

لن يصيبنا النجاح الا اذا اثبتنا تفوق طرائقنا . فاذا ظهر ان مزروعاتنا اخصب واشد احتمالاً من غيرها ، فان

الناس سيتوافدون علينا بطلب البذور والنصائح . سيكون من الصعب علينا تأمين كل الطلبات إلا انه لا يمكننا ان نعمل اكثر مما تحمله طاقة التيبتيين انفسهم . بوسعنا فقط ان ندلهم على الطرق الحديثة وان نشجعهم ونساعدهم على تطبيقها » .

بعد عودتي الى لاهاسا سألت احدى الشخصيات التيبتية المهمة ، وهو خبير اقتصادي ، عن رأيه في هذه المزرعة التجريبيـــة ، فبدا لي بجوابه مترجماً للنزاع الفكري الذي يحدثه الالتقاء الفجائي بين المجتمع التيبتي القديم والحياة الحديثة :

هكذا كان جوابه : ان الاستثمار الزراعي يفسح المجال امام ازدهار الزراعة . كما ان التجارب المطبقة في ميدان تربية الحيوانات كانت مرضية . ان هـــذه الاشياء حسنة وهي تحدث لأول مرة في تاريخ التيبت .

ان الدين في التيبت هو اساس حياة الناس وعملهم : وله بالنسبة الينا اهمية تفوق اهمية الاقتصاد . بالنسبة الينا نحن التيبتيين لا نرى ضرورة للقيام بالاصلاحات. هناك، من جهة، النبلاء الذين اخذوا ارضهم من الحكومة ولا يطلبون المزيد. وهناك، من جهة ثانية، الموظفون وهم يؤمنون حياتهم بسهولة . هناك اخيراً الارقاء وهم يملكون جزئياً الاراضي التي وزعتها الدولة وقد وجدوا الوسيلة ليعيشوا بصورة مناسبة .

حينما لا تقـوم الدولة بمساعدة الناس فانهم يساعدون انفسهم اذا كانوا مؤمنين .

ثم اكد محدثي على ضرورة العمل على مراحل متتالية واعترف بان الصناعة اساس التطور وان لم يكن لديه هو نفسه اية فكرة عن وسائل تنميتها . وانهى حديثه بالكلمة التالية :

ان التيبت بحاجة الى تعلم الفنون الحديثة لذلك نوفد كل عام طلابنا ليدرسوا في شانغتو وبكين . وحين عودتهم سيعملون على تطوير التيبت وجعلها مثل الصين .

الفصل التاسع عشر

الارقاء الرعاة

يبتدىء يوم العمل في المراعي القائمة على الهضاب العالية قبل شروق الشمس ، فتنسل امرأة عجوز خارج الخيمة المصنوعة من وبر (الياك) الاسود وتتوجه نحو الزريبة لتعنى بالحيوانات وتقدم لصغارها الغذاء . وتدب الحياة في معسكر الرحّل اذ يجب حلب البقرات وعمل الزبدة والجبنة ثم اخذ القطيع الى المرعى . هكذا يوزع النشاط اليومي بين الاعمال المنزلية والصيد ولا يبقى سوى القليل من الوقت لتسلية الرعيان المفضلة : الرقص والغناء اللهم الا اذا جاءهم احد النبلاء باثوابه الحريرية وطلب اليهم تأمين نقـله بصورة مجانية . وقد يطول سفره عدة ايام يضطر خلالها الحمالون الى تأمين معيشتهم على حسابهم الخاص :

ان خمس سكان التيبت يشتغلون في تربية الياك على الاعشاب النابتة في المضاب على ارتفاع ١٤،٠٠٠ قدم : كما يربون بعض الحيوانات الاخرى مثل الغنم والماعز .الا ان هذه فعالية ثانوية لأنه ما من حيوان يتحمل شروط المناخ القاسية مثل الياك .

تهتم منطقة النهر الاسود الواقعة شمالي لاهاسا بتربية الحيوانات بصورة اساسية وتحتل هذه المنطقة سبع قبائل ، وهم من النـاحية النظرية يملكون قطعان المواشي اما من الناحية العملية فلا يملكون منها الا القليل . اذ على غرار النظام العقاري ، نجد ان الملاكين الفعليين لهـذه القطعان هم مشايخ العشائر والكهان والحكومات المحلية . ولم تبق الا طريقة تعيين رؤساء العشائر مذكرة بنظام المشاركة القديم في اعتمادها بعض الشيء على مبدأ الانتخاب .

تؤجر المراعي والمواشي الى الرعيان مقابل حصة معينة من السمن والجبن والوبر اما الباقي فيعود للرعاة . وهؤلاء مسؤولون عن المواشي المفقودة والنافقة وعن تقديم الحصة العينية التي تعادل نسبتها سبعين بالمائة مهما تكن الاحوال . فاذا كانت المراعي خصبة والاعشاب متوفرة ولم تصب القطعان بالاوبئة فانهم يستطيعون القيام بما عليهم . امـا اذا كان الموسم رديئاً فانهم يضطرون الى الاستدانة كيما يؤمنوا معيشتهم . وتعتبر الاوبئة الفتاكة احـدى اعداء مربي المواشي لأنها قـد تفتك بكل القطيع ممـا يضطر

الرعيان الى العمل طيلة حياتهم ليفوا ديونهم ويدفعوا ما عليهم . وبما ان اجرة العمال الزراعيين منخفضة جداً لذلك لا يعمل الرعيسان على حساب الآخرين الا عند الضرورة القصوى :

ان الرعيان في شظف من العيش شأنهم في ذلك شأن الفلاحين . وهم يستهلكون كمية اقل من الشعير واكبر من اللحم والدهن الضروري في المرتفعـات . ويدفعون للمعابد ضريبة عُشر اضافية ليقرأ لهم الكهان صفحة المستقبل وليسهلوا لهم في لحظة الموت تقمص ارواحهم على مستوى اعلى . ولا شك في انهم اكثر اهل التيبت ورعاً وتطيراً . ولا يصرفون درهماً في شراء الملبس لأنهم يرتدون اثواباً مصنوعة باليد من صوف الاغنام وقمصاناً من جسلدها . وليس غريباً اذا ما اشتد الحر أن يرى المرء النساء يعملن وهن عاريات الصدر . اما الرحّل فـلا يحتذون شيئاً في ارجلهم بل يسيرون حفاة منذ نعومة اظفارهم . فالتيبتيون اذن قوم متينو البنية لأن القوي منهم وحـده يبقى على قيد الحياة .

تقوم النساء عادة باقسى الأعمال فيحلبن البقران ويجمعن القطعان ويهيئن الدقيق ويعملن السمن . اما الرجال فيقومون بالصيد وبالاعمال التجارية ويؤمنون انتقال القوافل ويحاربون من اجل القبيلة . على ان الحروب بين القبائل اصبحت نادرة الوقوع منذ عام ١٩٥١ . اما الصيادون فيستعملون

بنادق عتيقة وفي بعض المنـاطق لا يزالون يستعملون القسي والسهام .

ان تسلية ابنـاء الهضاب المرتفعة بسيطة مثل حياتهم البدائية . ويتلهى الرعيان في اوقات اجتماعهم بسباق الخيول ومبارزات قذف السهام . ولا يجري السباق بحسب خطة مرسومة سابقاً بل يبدأون عادة برهان او تحد بمهد للسباق. والتيبتيون من خـيرة الفرسان ويحسنون قذف النبـال وبامكانهم اصابة الهـدف بدقة من فوق ظهور خيولهم المسرعة كما يحسنون القيام بكل العـاب الفروسية . وبعد الانتهاء من المبـارزات ، يختمون افراح اليوم بحفلات الرقص والغناء .

ان القروض المعفاة من الفائدة اخذت تساهم في تطوير تربية المواشي انمـا بصورة ابطأ مما هي عليه في ميدان الزراعة . وقد عقدت اتفـاقات بين الحكومة ورؤساء القبائل الا ان صعوبة المواصلات في هذه المناطق الشاسعة تجعل التطبيق صعباً للغاية . وكان الرحل يستقرضون من المعابد بفائدة تتراوح بين خمسة و خمسين بالمـائة بحسب الحاجة للقرض ، لأن بعض القروض ذات اهمية بالغة وحيوية بالنسبة الى مربي المواشي .

ان شراء مخزونات الصوف التيبتي من قبل سلطات بكين كان العامل الحاسم الذي ربح ثقة الرحل تجـاه الحكومة المركزية . وقد روى لي هـذه القصة عدة

اشخاص . ففي مطلـع عام ١٩٥١ كانت اسعار سوق الصوف حسنة جداً . الا انه حين كان التجار يطوفون في مناطق المراعي لابتياع الصوف بكميات كبرى ، عقدت المعاهدة الصينية التيبتية مما ادى الى هبوط الاسعار بنسبة الثلثين وتهددت السوق التيبتية كلها . وحينئذ تدخلت حكومة بكين واشترت الصوف بالسعر السابق للهبوط •

قليلا ما يبيع مربو المواشي كل اصوافهم لأنهم يتركون النصف للحاجة المنزلية . واخوف ما يخافون هو حلول الاوبئة الفتاكة وهم يعتبرون امثال هذه المصائب كعقاب الهي عن ذنوب اقترفت في حياة سابقة •

وقد عرفت خلال زيارتي مخبر الامصال الواقية الجديد في لاهاسا وجهة نظر احدى التيبتيات في الاوبئة والعناية البيطرية . التقيت بها بعد انتهائها من دراسة تشريحية على فأر . فقالت لي ان اسرتها كانت تعيش حتى عام ١٩٥٠ بيسر من دخل قطيعها . وبما ان الاسرة كانت من الملاك لذلك كانت تشعر بشيء من الاستقلال . ثم ظهر فجـأة طاعون البقر عام ١٩٥٠ .

« لقد رأينا بأم اعيننا مواشينا وهي تتساقط الواحدة تلو الاخرى . وعملنا كل ما بوسعنا لانقاذها دون نتيجة وبعنا كل ما عندنا لندفع ثمن صلوات الكهان . وهكذا فقدنا كل شيء .

في هذه الاثناء وصل جيش التحرير الشعبي فدخلت

في خدمته وقت ببعض الاعمال .

كان عمري وقت الكارثة ستة عشر عاماً ، لذلك لم ألحق بوالديّ اللذين اضطرا الى القيام بالسخرة . وكنت كلما اقتربت من الثامنة عشرة ، وبالتالي اقتربت من سن السخرة ، أحس بالرغبة في الدراسة . أخيراً تحققت فكرتي وتعلمت في المعهد ان بالامكان مساعدة التيبت بطرق عديدة . فاخترت الطب البيطري ، لانني كنت أعلم ان الأمراض يمكن محاربتها والشفاء منها ، وأريد ان أحول دون وقوع كوارث من النوع الذي حل بأسرتنا . وقد أيد الجميع اختياري هذه الدراسة . »

دخلت هذه الفتاة بعد الانتهاء من دراستها الى معمل الامصال في لاهاسا لتطبق المعلومات النظرية التي تلقتها اثناء دراستها . يتكون المعمل حيث تشتغل من مجموعة من المباني المبيضة بالكلس . وقد ابتدأ بانتاج الامصال الواقية اعتباراً من عام ١٩٥٥ . أنتج المعمل في البداية أمصالاً واقية من طاعون البقر مستخرجة بحسب طريقة استنبطها الصينيون أنفسهم . ومنذ عام ١٩٥٢ يقوم المختبر باجراء دراسات خاصة لمحاربة مختلف الاوبئة التي تصيب المواشي التيبتية .

وقد زرت احدى الغرف حيث كانت الممرضات يقمن بحقن المصل على الخراف . كانت هذه

تستسلم دون مقاومة ، إلا ان عينيها كانتا نابضتين بالقلـــق .

وبخصوص تصرف الناس قال لي مدير معمل الامصال: ان تثقيف ابناء الهضاب المرتفعة يجري ببطء ، إلا ان هذا الامر ليس كبير الأهميــة ، لأن مربي المواشي سوف يتأكدون في المستقبل ان المواشي الملقحة ستواجه الامراض بينما ستنفق بقيــة المواشي . حينئذ سيقصدوننا باعداد كبيرة . اما في الوقت الحاضر فاننا نبذل قصارى جهدنا لنقنعهم بضرورة التلقيح الواقي .

والحقيقة ان مربي المواشي اذا قبلوا على مضض ان يعتنى بحيواناتهم المريضة بطرق مخالفة للدين فانهم يعترضون بغضب على تلقيـح مواشيهم السليمة . وهم يعتقـدون ان أمثال هـذه العمليات المخالفة للدين ستعيق التناسخ المقبل لروحهم .

واغتنمت الفرصة وقلت للفتاة البيطرية :

– لقد رأيتك تشرّحين فأرة ، فلا شك انك تحملين فوق كتفك وزر هذه الروح المزهقة . فكيف يمكنك تفسير ذلك من وجهة نظر الدين ؟

– انهــا خطيئة طبعاً . اعرف ذلك تمـام المعرفة ، ولكن ما دام عملي ينقذ أرواحاً أخرى فاني أسجل بعض الحسنات . انني أرى الامور على هذه الشاكلة .

ثم سألتها عن رأيها في ابادة الجراثيم بالجملة ، وهل

يشكل هـذا خطيئة أم لا . فأجابتني بصورة غـامضة ، معتبرة الجرائم كعفاريت شريرة ..

كان واضحاً انها لم تكن تستطيع التوفيق بين ايمانهـا ومعتقداتها وبين مزايا العلم المفيدة .

ولما سألتها عمـا تعمله في أوقات الفراغ ، أجـابت بأنهـا تذهب مع أصدقائها لتصلي في المعابد ، ملتمسة العفو عما ترتكبه من خطايا وذنوب اثناء عملها .

الفصل العشرون

التاجر التيبتي

خلافاً لامثالهم في الغرب لا يأنف الارستوقراطيون في التيبت العمل في ميدان التجارة ولا يعتبرونها عملاً غير مشرّف ، بل انهم يشكلون على العكس مع الرهبان ذوي المناصب العالية ، اكبر تجار البلاد . وهكذا فان المجتمع التيبتي لم يسمح للطبقات الدنيـا بمنافسة السلطة الكهنوتية وسلطة طبقة النبـلاء . يجمع التاجر التيبتي في شخصه صلاحيات النبيـل ، والكاهن ، والموظف ، اما المدنيون المنتمون الى الطبقة الدنيا الذين ينجحون في مزاولة التجارة ، فانهم لا يحتقرون بصفتهم وصوليين وانمـا في استطاعتهم الحصول على أعلى الوظائف الرسمية ، والانضمام الى طبقة النبلاء وحتّى الى طبقة الكهنوت ذات النفوذ الكبير .

ان الشاب التيبتي الذي مد لي يد المساعدة برحابة صدر وكان ذا عون كبير لي خـلال اقامتي في لاهاسا ، هو

مثل لهذا الصعود الاجتماعي السريع . (سادو تشانغ رنشن) هو الولد السابع لأحد كبار التجار في « كاليمبونغ » ، أتم دراسته في هذه المدينة وفي « دار جيلينغ » ، وهو يتكلم بسهولة التيبتية ، والهان ، والنيبالية ، والانكليزية والهندية . يحمل شهادات عليا في الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والجغرافيا ، وفي اللغة الهندية . وحين القي القبض على الوصي عام ١٩٤٧ ، اضطرت عائلة «سادو» التي اشتبه في اشتراكها بمؤامرة لاحداث انقلاب ، الى الهرب تاركة وراءها عدة منازل في « لاهاسا » و« باري » وغيرها من المدن . وقد حجزت أملاك العائلة اثناء بقائها في المنفى . واستطاع والد سادو أن يحصل على العفو بعد مدة ، فعاد الى التيبت حيث عرض على احد أفراد عائلته إشغال وظيفة من الدرجة الخامسة تعويضاً للاضرار اللاحقة بالاسرة ، وقد وقع الأختيار على سادو الشاب وأخذ يمثل اسرته في (شاي الحضور) وهي حفلة رسمية ينصت خلالها الدالاي لاما الى تقارير السكرتارية ويسمي الموظفين الكبار في مناصبهم . وهذا التعيين يشكل مرحلة هامة في السلم الاجتماعي بالنسبة للتجار الاغنياء .

· ومما يبعث على الدهشة ، كثرة التيبتيين الذين يتعاطون التجارة على الرغم من ضيق السوق الاقتصادية .

يملك كل معبد شبكته التجارية ، وهنالك رهبان رحالة يسافرون الى الهند ، ونيبال ، وشانغتو، وتشنغهاي ، للبيع

والشراء لحساب المعبد . وتشمل الشبكة التجارية الأماكن المنزوية والسحيقة البعد من الهضبة التيبتية ، ويقصد التجار هذه الأماكن بواسطة طرق لا يمكن « للياك » المرور منها ، فيستعاض عنها حينئذ بالماعز . ومع ذلك تبقى حركة التجارة التيبتية محدودة ، لأنها ترتكز على الفائض القليل الاهمية من المحاصيل الزراعية والمواشي ، المستهلكة من قبل مليون نسمة ، ذات مستوى المعيشة المنخفض جداً .

ان بنية سوق مدينة لاهاسا معقدة التركيب . فالمنتجات المستوردة من الهند هي بصورة عامة عبارة عن مواد للترف ، خفيفة تنقل بسهولة على ظهور « الياك » وتفي بحاجات التيبتيين الاغنياء ، والموظفين الصينيين المستخدمين في لاهاسا . وهي تتألف من الأقمشة الانكليزية من المرتبة الاولى ، ومساحيق الجمال ، وأدوات الألومنيوم ، والدراجات العادية والنارية ، والساعات السويسرية . وقد اشتريت شخصياً من لاهاسا أحدث طراز لساعات (رولي فليكس) مقابل ٧٢ جنيهاً . ونجد ضمن هذه المستوردات كذلك ، الزيت الصالح للأكل . وتصدر التيبت الى الهند مقابل ذلك ، الصوف ، واذناب « الياك » ، والمسك ، والحرير ، والاعشاب ، والملح ، أي ما يعادل ٢٥٠٠ حمولة ياك في الشهر عام ١٩٥٤ ، بلغت ٣٣٠٠ حمولة خلال الأشهر الستة الاولى من عام ١٩٥٥ . أما الآن بعد فتح الطرق الجديدة التي تصل لاهاسا بالحدود الهندية ،

فمن الواضح أن النقل الآلي للبضائع يشجع التبادل التجاري مع الهند التي لم تعد سوى على مسافة يومين من العاصمة التيبتية . ومنــذ الآن أصبح عبور الطريق من بكين الى الهند اكثر سرعة واقتصاداً للوقت . وقد استغلت بعض الاوساط مناسبة فتح طريق لاهاسا ـ الهند ، فلمحت الى أن الصين تشق طرق المواصلات في التيبت ، لأنها تنوي القيام بأعمال عسكرية ضد الهند . غير ان الهنود لايشاركون هذه الأوساط رأيها . والواقع انه لا معنى للاتفاقية التجارية التيبتية الهندية اذا لم تسرع التيبت بتحسين وســائل النقل وادخال الآليات فيها . وقد تبادلت الحديث حول هــذا الموضوع مع أحد تجار لاهاسا الاغنيــاء ، فأجابني بدون أي تردد :

لو أراد الصينيون لكان في استطاعتهم خنق التبادل التجاري بين الهند ولاهاسا ، بتجميد أرصــدة الروبية ، وتوقيف اعمال تحسين وشق الطرق ، الى ما وراء لاهاسا . ان البضائع المنقولة بواسطة سيارات الشحن من « شانغ تو » حتى « تشنغهاي » هي اكثر فائدة واقل كلفة من البضائع المستوردة من الهنــد على ظهور « الياك » ، ومع ذلك شجع « الهان » التبادل التجاري بين التيبت والهند .

عندما وصل الصينيون الى لاهاسا ، كان هناك كثير من الناس ينتظرون أن تقع على رؤوسهم الكوارث والمصائب . كان الرهبــان يفكرون بأن الدين سيكون مضطهداً ،

والاغنيــاء يخافون من ان تحجز أموالهم . وقــد حسبت شخصياً ان نهاية التبادل التجاري بين التيبت والهند والنيبال قد حلت . ولكن الجميــع كانوا فريسة للخطأ ، فقد استطعت الحصول على ما أحتاج اليه من الروبيات، لأستمر وحتى كي اوسع نطاق تجارتي. وانا استطيع حالياً ان استأجر سيارات الشحن واستورد بضائع جديـدة كانت في السابق صعبة النقل على ظهور « الياك » ، ولا شك ان تمديد الطريق نحو الحدود الهندية يعني استمرار التبادل التجاري مع هذه المنطقة في جميــع الأحوال ، وبشكل متواز ، يتزايد التبادل مع الصين بسرعة ، مع انشاء وسائط النقل الجديدة . وقد قفزت الصادرات التيبتية نحو الشرق بواسطة شركة تجارة « كامدو » من ١٣٠،٠٠٠ دولار شهرياً سنة ١٩٥٣ الى ٧٠٠،٠٠٠ دولار عام ١٩٥٥ . وتتألف المنتوجات المستوردة من الصين بصورة رئيسية من الشاي ، النسيج ، الأوائل الزراعية ، البورسلين ، السجائر ، الخمر ، الحرير وتقدر بمبلغ ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دولار سنة ١٩٥٤ . ولكن هذه الأرقام مع ذلك لا تمثل الحد الاقصى للميزان التجاري العائد لمستوى الانتاج الحــالي في التيبت ، اذ ان نصف منتوج الصوف لا يدخل الأسواق ، بل يضيع بكل بساطة ولم يجر حتى الآن تقدير طاقة التيبت في انتــاج المسك ، والفراء ، والاعشاب النادرة الخ ..

يتطلب تحسين مستوى حيــاة التيبتيين بشكل محسوس

جهوداً طويلة في ميدان الزراعة والصناعة ، غير ان ارتفاع القوة الشرائية حالياً يمكن أن يحدث بواسطة تطور وتوسع التبادل التجاري وازدياد كمية الصفقات .

وقد أعطاني « هبا شونغ يوان » الخبير الصيني الاقتصادي بشؤون التيبت لمحة عن السياسة التجارية للصين تجاه التيبت . واكد ما رواه لي التجار التيبتيون ، واضاف بأن الدولة لا تتدخل في تجارة المفرق وتزود بنفس الوقت التجار بقروض لا يستوفى عنها أية فائدة ، كما تعقد صفقات كبيرة مع هؤلاء التجار ، وهكذا نرى أن التجارة الداخلية والخارجية للتيبت ، تلقى التشجيع التام ، كما ان هذه السياسة تساعد على ازدياد سرعة تداول الرساميل .

ويؤمن البنك الشعبي توازن مستوى النقد والاسعار بمراقبة كيفية منح العملة الصادرة الى الموظفين الصينيين وجنود جيش التحرير المقيمين في التيبت مراقبة شديدة . فلا يستلم (الهان) إلا ٢٠٠٠ من اجورهم نقداً ، أما البقية فتوضع جانباً في المصارف . وبنفس الوقت انشئ احتياطي كبير من الحبوب لمنع كل مضاربة أو ارتفاع في الأسعار .

ان خزن الحبوب يتفق في الواقع مع عادات التيبت القديمة ، فخلال فيضانات « غيانتسي » مثلاً حين التجأت السلطات الى هذا الاحتياطي ، اكتشفت وجود طبقات من الحبوب مخزونة منذ ثلاثين سنة .

وقد تابع هيا شونغ قائلاً :

وقد حرصنا ايضاً على أن لا يعيش جيش التحرير والموظفون ، على حساب التيبت ، وعلى الرغم من نقصان الوسائل الفنية ، فقد استطاع رجالنا أن يصلحوا ما يزيد على ٤٠٠٠ اكر من الأرض . وقد أدت هذه الاعمال الى نتائج سياسية هامة ، اذ اكتشف الشعب التيبتي بأن ما نفعله لا يقارن مطلقاً مع أعمال الحكومات الصينية السابقة التي كانت تضغط على الشعب وتفقره .

وقد انخفضت تكاليف النقل نتيجة لهذه التدابير ، وتسارعت عمليات التصريف . ووجدت بعض المنتوجات التيبتية التي لم يكن في الامكان تصريفها في أسواق ملائمة ، وبصورة عامة يمكن القول ان وضع التجارة التيبتية تحسن بشكل ملحوظ .

اكد لي « شامبا » التاجر الراهب من معبد « كانز » أن الاعمال لم تكن في يوم من الأيام أحسن منها الآن . كنا جالسين في غرفة ، نلتهم الجبن الحلو ، ونرتشف الشاي ، بينما كان يحدثني بانه لم يكن في الامكان في زمن النقل بواسطة « الياك » استيراد البضاعة الثقيلة ، ولم يكن يربح شيئاً كثيراً من بيع المنتجات التيبتية ، وتابع شامبا كلامه قائلاً : اني أبيع الآن بصورة خاصة الصوف ، والمسك ، والزعفران ، والاعشاب الى شركة تجارة الدولة التي تدفع لي أسعاراً جيدة . وانا احصل الآن بواسطة

خمس سيارات في مدى ١٥ يوماً ربحاً كان يكلفني في السابق شهرين و ٥٠٠ ياك . لقد زادت أرباحي بمعدل ٣ أضعاف خلال عام ، مع ان الاسعار بقيت منخفضة حين الشراء ومرتفعة لدى المبيع .

وقد انخفضت الأسعار في كامدو بنسبة ١٣ بالمائة منذ عام ١٩٥٤ ، وارتفع مقابل ذلك سعر الصوف بنسبة ٥٠ بالمائة . وزاد عدد الدكاكين في لاهاسا من ١٩١٧ الى ٢٢٤٥ منذ انشاء الطريق في أقل من سنة .

يؤدي التجار التيبتيون خدمات جلى ، بمقايضة بضاعتهم في الوديان البعيدة المنزوية ، مقابل محاصيل الفلاحين والرحل . ولا تقوم شركات التجارة التابعة للدولة إلا بتجارة الجملة ؛ ولكنها تحاول بشتى الطرق حمل التجار على افادة المستهلكين من انخفاض الأسعار .

ولقد أكد لي « هيا شونغ يوان » ان حكومة بيكين تهدف الى تطوير التجارة التيبتية ، كي تستخدم رساميل التجار في زيادة انتاج التيبت . وبنفس الوقت يشجع الصينيون توسيع التجارة الخارجية للتيبت ، كي تسد الطلب المتزايد من البلاد الاجنبية .

الفصل الحادي والعشرون

اول جريدة في التيبت

أمسكت بين أصابعي ، في المضبة الأثرية العائدة للسادة « دي غي » ، الحروف الخشبية التي استخدمت في طبع كتاب « كاكستون » (طبع كاكستون أول كتاب انكليزي في القرن الخامس عشر) ، والتي لا تزال تستعمل منذ ذلك الوقت . ويبلغ طول كل لوحة من لوحات الطباعة قدمين . وقد حفرت اللوحة من الطرفين ليتسنى طبع وجهي الصفحة . ومن الغريب ان الطباعة تجري دون أي مكبس أو غيره من الآلات المستعملة ، حتى في المطابع البدائية . أما الورق فقد كان غليظاً لا يمكن للطباعة ان تكون واضحة تمام الوضوح عليه . وقد لاحظت ان القائمين على العمل لا يدفعون لعمال الطباعة اجورهم وانما يكتفون باعاشتهم واسكانهم مقابل عملهم . أخذ بعض الرهبان في تحضير صنع الحبر ، مستعملاً

في ذلك هباب الفحم للحبر الاسود ، والطين للحبر الاحمر مع رش قليل من الماء ، وبعد ان انتهى من صنعه صبه في أحواض خاصة من النحاس . وبينما كان أحد الرهبان يحبر اللوحات بضربات فرشاة كانت في يسده ، كان الآخر يطبق عليها صفحة من الورق المبتل بالماء ويضغطه قليلاً بواسطة لفة من الخرق . وكان هنالك بعض الرهبان الصغار ، الذين يطلق عليهم اسم (شياطين المطبعة) يتراكضون في جميع الجهات ، حاملين احواض الحبر وأكداس الورق المقطوع بشكل غير منتظم . وقد استغرق طبع وجهي الصفحة ١٤ ثانية .

كان من المأمول في بلد عرف الطباعة منذ القرون الوسطى ان يكون في مقدوره اصدار جريدة على الاقل . لكن الواقع خلاف ذلك ، لان حروف الطباعة التيبتية المخصصة لطبع النصوص الدينية فحسب ، لم تتطور منذ عدة قرون، ولا تتوفر في التيبت من جهة أخرى أجهزة الطباعة والعمال المدربون والصحفيون . كما لا توجد في التيبت أيـة تقاليد صحفية ، هذا البلد الذي يقرأ فيه حفنة ضئيلة من الناس الاعداد العتيقة للجرائد الهندية والانكليزية تصل اليهم على ظهور (الياك) .

وقد أصدرت لجنة العمل في الحزب الشيوعي سنة ١٩٥١ نشرة صغيرة ، على عدة أعداد فقط ، سميت (الاخبار القصيرة) . وتم بعد ذلك استيراد آلات الطباعة والحروف

الجديدة المصنوعة في بكسين . وجرى في نفس الوقت تدريب بعض التيبتيين على صف الحروف بصورة فنية ، وفي ٤ ايار سنة ١٩٥٥ صدرت اول جريدة في التيبت ، وحين يمر الزائر في هذه الايام وراء دار البريد الجديدة في لاهاسا يمكنه ان يسمع الضجة المألوفة لآلات الطباعة واللينوتيب ، التي تطبع ثلاثة آلاف عدد من أعداد (الإخبار القصيرة) . ولا تصدر الجريدة ، في الاحوال الحاضرة ، إلا ثلاث مرات في الاسبوع ، لكنها ستصبح يومية عند تذليل بعض الصعوبات العملية القائمة حالياً ، واحدى هذه الصعوبات تكمن في بدائية اللغة التيبتية .

هذا عدا عن ان اللغة التيبتية تحتوي على عدة لهجات، يوجد في التيبت ثلاث لغات للتكلم مختلفة ، ولغة أخرى للكتابة ، وتعدد لغات الكلام تعبر عن مختلف تدرجات مظاهر الاحترام تجاه الاشخاص الذين يوجه اليهم الكلام وبالعكس ، لان اللغة المكتوبة يصعب تقبلها وهضمها ، بالنسبة الى أفراد الشعب العاديين . وفي الوقت نفسه تظهر لغة الكلام حين تتحول الى لغة الكتابة ، خاطئة وبدائية بالنسبة للمثقفين . وبالاضافة الى ذلك فان أي شكل لغوي في التيبت لا يحتوي على تعابير حديثة علمية ، أو مفردات لغوية سياسية . فلا يوجد في اللغة التيبتية مما يعبر عن (سيارة الشحن) أو (الجرار الزراعي) أو (القاطرة) أو (الطائرة) أو (الشيوعية) أو (الاشتراكية) أو

(الهيدروجين) أو (الذرة) الخ ..

وقد أخذت لجنة مؤلفة من ١٢ عضواً يرأسها أحد البوذا الاحياء السابقين ، على عاتقها مهمة تطوير اللغة التيبتية . وتلجأ هذه النخبة من المثقفين المتحمسين ، الى نقل وصياغة النصوص لنشرها في الجريدة ، وتترجم الكتب وتحاول اقتباس بعض التعابير كي تنسجم مع حاجة المجتمع الحديث . ومن جملة أعمال هذه اللجنة انها أصدرت قاموس التعابير الجديدة ، وتعد حالياً قاموساً جامعاً من لغة الهان الى لغة التيبت .

تنشر (الاخبار القصيرة) مقالات ودراسات وريبورتاجات لصحفيين صينيين ، الذين لهم خبرة كافية ، والذين يعملون في الجريدة التي تحمل نفس الاسم وتصدر باللغة الصينية . وتدرب الجريدة بالاضافة الى ذلك فريقاً من المحررين التيبتيين الذين في وسعهم قريباً جداً ان يحلّوا محل الصينيين ويؤمنوا اعمالهم . اما قراء الجريدة فيتألفون بصورة رئيسية من الطبقات الحاكمة ، رجال الكهنوت والنبلاء ، كما ترسل الجريدة الى أكثر من ٤٠٠ معبد ، بينها معبد (هاربن) الذي يبعد آلاف الكيلومترات . وهذه هي أول مرة يقرأ فيها الرهبان نصوصاً لا تمت مواضيعها بصلة الى النصوص المقدسة التي اعتادوا قراءتها. ويوجد في مدينة شيفاتزي وكامدو جرائد محلية تتابع صدورها بسبب بعد العاصمة .

يشكل عمال المطابع التيبتيون ، المستخدمون في مطبعة لاهاسا تحت ادارة اختصاصيين صينيين ، أول نواة للعمال المأجورين في التيبت . وعلى الرغم من عددهم الذي لا يزال محدوداً ، فانهم يرمزون الى حلول عصر الصناعة في التيبت . وهذا يؤيد ما ذهب اليه الدالاي لاما من ان مستقبل التيبت يرتكز على تحقيق الاشتراكية فيه . ومما يلفت النظر ان طليعة العمال الصناعيين في التيبت يعملون في طبع جريدة موجهة حالياً الى الطبقات الحاكمة فقط .

لا يوجد في التيبت حالياً محطات للاذاعة . والطريقة الوحيدة لسكان المدن كي يسمعوا الاخبار هي اذاعتها بواسطة مكبرات صوت معلقة في الشوارع . وينصب هدف الحكومة حالياً على انشاء شبكة لاجهزة الارسال في المدن الرئيسية مجهزة بمكبرات الصوت تذيع نشرة الاخبار ، مع بعض التعليقات ، كما تتضمن نصائح صحية ، وقصص تروى بشكل شعبي ، وبعض الموسيقى والغناء . كنت اسمع في شوارع لاهاسا ثلاث مرات في الاسبوع صوت المذيعة ينبعث من ١١ مكبراً للصوت ، معلنة في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً : « هنا راديو لاهاسا » . ويدوم البرنامج ساعة من الزمن ، وتتوقف هذه الاذاعة خلال الاحتفالات الدينية . اما المذيعتان فهن (ايشي) ٢٦ سنة وابنة ارستقراطي من منطقة تسانغ ، و(سونام نامو) ١٦ سنة وابنة أحد تجار لاهاسا ، وتقبضان أجوراً مرتفعة

بالنسبة لمستوى أجور التيبيت ، ٩٠ دولاراً كل شهر .

تذيع الحكومة التيبتية الحالية أحياناً تصريحات ذات أهمية كبرى بواسطة مكبرات الصوت ، فمثلاً حين كان الدالاي لاما يزور الصين في المرة الاخيرة ، أذاع من بكين الى الشعب التيبتي المبهور رسالة يعلن فيها عودته القريبة عقب انتهاء المفاوضات التي كان يجريها في بكين . وكانت قد انتشرت بعض الاشاعات المقلقة ، بان الحبر الاعظم محتجز بالقوة في بكين ، وانه لن يعود مطلقاً الى التيبيت .

ولا يمر الآن يوم إلا وترى في شوارع لاهاساجماعات من المارة ينصتون الى دروس صحية حول فترة ما قبل الولادة ، أو الى خطاب حول استعمال الاسلحة الذرية .

انه لمن الصعب حقاً ان ندخل مفهوم السلاح الذري في أذهان أناس لم يروا في حياتهم قنبلة ، أو قصفاً بالقنابل ، ولم تدخل كلمة الهيدروجين في مفردات لغتهم . وقد سألت أحد وجهاء لاهاسا عن رأي التيبتيين بالقنبلة الذرية فأجابني بأن أغلبية السكان يعلمون بوجودها وبقوتها ، حتى انه يوجد مثلان شعبيان حول موضوع القنبلة الهيدروجينية : « إن الذي يستخدم القنبلة الهيدروجينية هو عدو الجنس البشري » . ويقول الآخر : « ان الذي يستخدم القنبلة الهيدروجينية هو مالك الشياطين » .

ولا تتعرض الاذاعة لقضايا الصحة إلا بشيء من

الحذر والتأني ، لانه لا يمكن في الوقت الحاضر التأكيد على المظاهر العلمية التي تناقض تماماً المذهب اللاموي . وهكذا فانه من المستحيل حالياً شن حملة ضد الذباب والقمل ، أو لصالح الوقاية من الامراض . ويسبب كذلك مفهوم شكل الارض الكروي ودورانها حول الشمس ، في تيبت القرن العشرين نفس الفضيحة التي أثارت اوروبا في عهد غاليله !

الفصل الثاني والعشرون

الصناعة والحرف اليدوية

لم التق في مدينة لاهاسا الا بمدني واحد فقط اسمه (ديان لويان) يقص شعره على الطريقة الغربية مع فرقة على الجانب . وقد اخذ اذناً خاصاً من الدالاي لاما بالسماح له بعدم حمل القرط التقليدي على اذنه . انه احد القلائل من بين المدنيين الذين يمكن اعتبارهم من اهل الفكر. طرحت عليه ذات يوم ، خلال احدى المناقشات العديدة التي جرت بيننا ، سؤالاً طالما راود نفسي ، قلت له :

ـ لماذا لم تكن السيارات مستخدمة في التيبيت ؟ هل استعمالها محظر كما ادعى بعض الكتاب ؟

ـ ان هذه التأكيدات خاطئة . اذ لم يكن هناك في يوم من الايام قانون يحظر استعمال السيارات ، سبب ذلك بسيط جداً فالتيبيت كانت دائماً بلاداً رجعية لا تحب التغيير. فلو انا ادخلنا السيارات لصار معنى ذلك اننا تخلينا عن

القديم في سبيل الجديد ولتلا ذلك تبديلات اخرى . لقد فهم التيبتيون ذلك منذ البدء ، فلم يرغبوا في السيارات .

نظراً الى فقدان السيارات، لم يجر تعبيد طرق، وبدون خطوط مواصلات يستحيل وجود صناعة في التيبت واقتصادها بسيط ومحدود الانتاج . اما الفائض عن الاستهلاك فيحول الى ذهب وحلى تزين التماثيل والاضرحة في المعابد . ومن عادة الاغنياء ان يلبسوا ملابس حريرية باهظة الثمن مستوردة من الصين ، وان يتحلوا بساعات نفيسة مستوردة ايضاً . ويتنقل ابنـــاء الاسر النبيلة في يومنا هذا على الدراجات النارية التي تعتبر وسيلة انتقال للطبقات الكادحة في الغرب، لأن المستوى الفني لا يعادل مستوى البلدان الصناعية . وان منزل اغنى الاغنياء في التيبت لا يعجب محامياً لندنياً ناجحاً. وقد اخبرني ابن اخ الدالاي لاما ان دخله السنوي يساوي فقط اثني عشر طناً من السمن بالاضافة الى دخل وظيفته الرسمية .

نظراً الى شهرة سجاد لاهاسا فقد اعربت عن رغبتي في زيارة المصنع الجديد الواقع في ضواحي المدينة. وجدت في ساحة البناء خمس نساء يغزلن خيوط اللُحمة على دواليب صنعت من مخلفات بكرات الخيوط الهاتفية التابعة لجيش التحرير وتُدار بالأرجل . ان هذا اول استعمال للدولاب في ميدان الانتاج . وقد طوف بي المدير في ارجاء المصنع فزرنا اقسام النسج والتمشيط والصبغ وكان يغلب عليها

طابع الاعمال الحرفية . وبالنسبة الى ما رأيت يبدو ان هذا المصنع هو النموذج الوحيد لتغيير طرائق الصنع التي لم تتبدل منذ قرون .

من الصعب التكهن بمستقبل الصناعة في التيبت . ان باطن الارض غني بالمعادن والفلزات . وفي عام ١٩٥٣ اكتشفت بعثة جيولوجية من بكين اكثر من اربعين نوعاً من الفلزات المهمة ، منها فلزات الحديد والرصاص والنحاس والزنك والكبريت . والذهب موجود فيها بغزارة حتى ان التيبتيين يستخرجون كل ما يحتاجون اليه من مجاري الانهار. والواقع ان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي استخرج بحسبها كل الذهب حتى الآن لأن الديانة اللاموية تؤكد ان الاستثمار بواسطة المناجم يغضب الآلهة المقيمة تحت الارض.

ان مشكلة حفر المناجم ليست الوحيدة فكل صناعة قد تصدم شيئاً مقدساً يحول دون نموها وتطورها . قال لي احد الكهان في لاهاسا ان وضع اللحم في علب محفوظة مثلاً يصعب تحقيقه بسبب الوساوس الدينية .

واستطرد قائلاً في بطء :

انما نعيش في عالم كثير التبدل وسائر نحو التحسن ولا يمكننا ان نحول دون بعض الاشياء الصغيرة لأنها مخالفة للدين . ولكن المهم بالنسبة الينا هو عدم مخالفة تعاليم ديننا . انظر مثلاً الى الرحل فهم مجبرون على اكل اللحوم رغم كون ذلك ممنوعاً . على المرء احياناً ان يتخذ

قراراته الخاصة . وقد يحـــدث احياناً ان يكون قد سبق للحيوان الذي آكل من لحمه ان مات فانا اذن لم اتسبب في قتله ».

واستطرد صاحبي قائــلاً دون ان يتحرر من كلامه المبهم :

ينبغي لنا ، توخياً لمصلحة حياتنا المقبلة ، ان نجاوز مصاعب عديدة . ومن هذه الزاوية ، يعتبر تصنيع التيبت عملاً صالحاً

على ضوء هذه النزاعات النفسية والازمات اللاهوتية ، يكتسب المــؤتمر الذي عقد في بكين في ٩ آذار ١٩٥٥ اهمية بالغة ويسجل حدثاً مهماً في تاريخ التيبت .

حضر اجتماع مجلس الدولة الصينيـــة هذا ، اللاموان الاكبران وبعض الشخصيات التيبتية المهمة . وفي نهـــاية الاجتماع اتخذ قراران هامان : خلق لجنة مهمتها اعداد الاستقلال الذاتي للتيبت وتحديد الاجراءات التي من شأنها تنمية الصناعة في التيبت . وقد استهدفت هذه المشروعات بناء مركز كهربائي في لاهاسا ومركز حراري في شيفاتزي، وبناء سدود واقنية للري لتحول دون الفيضانات ، وتوسيع بناء المزارع التجريبية والمدارس واعمال البناء . ويقوم مجلس الدولة بتقديم الاموال الضرورية والفنيين لتنفيذ هـــذه المشاريع .

بعد ثلاثة ايام فقط من انتهاء المؤتمر سافرت بعثة من

الفنيين للبدء بالأعمال . وقد تحدث اليّ رئيس هذه البعثة خلال سهرة كاملة عن النتائج الّتي توصلت اليها في مدة خمسة اشهر .

لقد اتخذت الاجراءات لمنع فيضان الانهر القريبة من لاهاسا وشيفاتزي وصار بمقدور الدالاي لاما الانتقال دون انزعاج بين متنزه بيجو وقصر باتولا . وقد قدّر التيبتيون بادرة الاحترام نحو رئيسهم السياسي والروحي حق التقدير .

وفي انتظار استخدام القوى المائية لمد لاهاسا بالكهرباء، تقرر اضافة ثلاثة مولّدات كهربائية إلى المولّد القديم وعما قريب سيوضع مولّد رابع قوته ١٠٠٠ كيلووات.وسيجري اعداد معظم العمال الفنيين التيبتيين اثناء العمل .

وتجدر الاشارة الى انه لا توجد طبقة عاملة في التيبت لأن العمل مقابل اجرة لم تعهده تقاليد البلاد . كما لا يوجد هنالك اي نوع من الاخصائيين والفنيـــين . حتى ان نفس النبلاء الذين يتوافدون على معاهد بكين وغيرها لا يحسنون الكتابة. وقد اكتشف قرب لاهاسا منجم يحتوي على ٢٠٠ الف طن من فلزات الحـــديد سيستفاد منه في بناء معمل للفولاذ . حينئذ سيكون بامكان التيبت صنع الآلات الزراعية وقطع التبديل . كما ان انشاء معمل للدباغة ضروري جداً للاستفادة من الجلود الفائضة واعدادها للتصدير .

ثم سألت رئيس البعثة عن رد الفعل الذي احدثته هذه المشاريع لدى التيبتيين وعن انعكاساتها على صعيد معتقداتهم

الدينية . فاخبرني بانهم ينتظرون تحقيقها بفارغ الصبر وبما انهم لا يملكون اية ثقافة علمية فانهم لا يتصورون التعقيدات والمصاعب التي يقتضيها بناء مولّد كهربائي . فهم يسموننا بالعلماء الاكفاء وينتظرون منا عمل العجائب . وخلال اعمال الري قام التيبتيون باعمال التنفيذ، اما الصينيون فلم يكونوا يتدخلون الا لتوزيع الاجور على العمال . كانت اغلبية اليد العاملة من النساء اللواتي كن يحملن معهن الآلات الموسيقية ، وما ان كانت اعمالهن تنتهي وتبتدىء فترة الراحة حتى كن يملأن الجو مرحاً بالانغام والرقصات. اما من ناحية مشاعر العمال الدينية فكنا كثيري الحذر واليقظة، فاذا ما بنوا نصباً حجرياً مقدساً في مكان مخصص لوضع آلة ما ، كنا نحاول ايجاد مخرج بوضعها في مكان آخر. فسألته حينئذ : الا يثير استثمار المناجم خلافات دينية حادة. فاجاب : لم تصل بنا الحال الى هذا الحد إلا انني لا اظن ان هناك معارضة جدية فقد لمسنا الى الآن احسن الاستعداد من طرفهم ، والواقع ان اغلب اكتشافاتنا في هذا الميدان مدينة الى المعلومات التي زودنا بها السكان بصورة حبية . ثم سألت نفسي وانا اهم بمغادرة مكتبه : ماذا سيكون الموقف من عمال الدباغة لأن العادة هي اعتبار كل من يشتغل في ميدان له مساس بجلود الحيوان ، من المنبوذين. وكيف يمكن ايجاد طبقة عاملة في بلاد تعتبر التقاليد القانون الوحيد .

ان العمال الحرفيين أيضاً ليسوا أحراراً في العمل داخل المعامل . فهم ملحقون بخدمة المعابد والنبلاء دونما اجرة سوى تناول الغذاء والحصول على السكن ؛ وفي اوقات الفراغ ، بعد الانتهاء من الاعمال التي يتطلبها سيدهم يمكنهم ان يعملوا لحسابهم الخاص . إلا أن بعض التحسينات طرأت على أوضاعهم.ففي عام ١٩٥٥ ، قبض النجارون الذين عملوا مدة ثلاثة اسابيع في المعابد ثلث دولار وحصة من السمن والشاي في اليوم الواحد . كانت هذه اول مرة تدفع فيها اجور عن عمل اجباري . إن هذا التبدل لم يأتِ نتيجة لتشريعات جديدة بل بفضل نمو الوعي الاجتماعي .

يقضي الصناع الحرفيون فترة تدرب مدتها ثلاث سنوات ويجري انتقاء المبتدئين من بين اسرة واصدقاء معلم الحرفة وحين دخولهم في الحرفة يتحتم عليهم تقديم الوشاح الطقوسي لمعلم الحرفة مع بعض الهدايا الاخرى ، ثم يقدمون بعض الهدايا للمعبد ويقومون باداء بعض الصلوات وفي نهاية العام الثالث يمكنهم ان يعملوا على حسابهم الخاص في حدود قيود عبوديتهم وانتمائهم الى جمعياتهم الحرفية .

من الممكن ايجاد حل لمشكلة اليد العاملة الصناعية بالاعتماد على العمال المستقلين وعلى العمال الحرفيين الذين لن يترددوا عن تفضيل عمل جديد يؤمن لهم اجوراً ثابتة .

يمكن اعتبار الحرفي جيرسي واحداً من هذه الفئة

فهو يصنع اغراض الزينة للفلاحين ويعيش مع زوجته واطفاله الثلاثة وحماته وابنتها في غرفة واحدة . وعنده اجير يعيش في إسفل البناء القديم الواقع في حي من افقر احياء مدينة لاهاسا . ان النور الذي يتسرب من النافذة الوحيدة هو من الضآلة بحيث تبدو الغرفة مظلمة في وضح النهار . ولا تتعدى مساحة هذه الغرفة اربعة امتار مربعة واحتفاء بقدومي هيأوا الشاي بعدما استعاروا فناجين البورسلين من الجيران .

ابتدأ جيرسي بالعمل ككاتب عند أحد التجار ، لأنه تعلم الكتابة عند أحد النبلاء . قال لي :

ليست لي الموهبة الكافية للقيام بالاعمال الكتابية وكان دخلي آنذاك أقل من دخلي الحالي لدرجة انه لم يكن يكفي لغذائنا . كانت لدي المعلومات ولكن لم يكن لدي المال لأشتري أحد المناصب .

حين كنا نتبادل الحديث ، كانت زوجته وشقيقتها منهمكتين في العمل بأصابعها الماهرة . وبدت لي شقيقتها الشابة جميلة جداً . أما الزوجة فكانت تضع في نفس الوقت ولدها الصغير وعمره عام واحد على ركبتيها . أما الزوج فيبلغ الثلاثين من عمره ، وجهه نحيف ، دقيق التقاطيع ، ينطق بالصراحة . كانت له ضفيرة طويلة ملفوفة حول رأسه وعلى اذنيه القرط التقليدي .

لقد افهمني انه ، بعد الانتهاء من عمله يذهب لبيع

بضاعته اما في السوق واما على الابواب فيربح مع عائلته دولاراً واحداً في اليوم ، فاذا سار دولاب الاعمال فانه يربح ما يكفي لسد المصاريف . إلا انه أسر الي انه غير ناجح في اعمال البيع ، وغالباً ما يضطر الى تصريف البضاعة باثمان بخسة ليشتري ما يحتاج اليه . اما اذا ساءت الاحوال فانه يضطر الى الاستدانة .

ثم سألت الزوجة عن قائمة الطعـــام العادي للاسرة فأجابت : ان زوجي يشكو مـن الم في المعدة ، لذلك نضطر الى أن نعيد له تساميا بالشعير مـن نوع حسن . اما نحن فنتناول شوربة الفاصولياء في الحالة العامة . وحينما يكون لدينا شيء من المال نشتري قليلا من الشاي والسمن ويتلقى زوجي منـذ عام عناية طبية في المستشفى الشعبي ويبدو ان ذلك مفيد له .

هكذا عرفت بعد محادثة دامت عدة ساعات كل قصة جيرسي . انه من ارقاء معبد (سيرا) اما زوجته وحماته فتابعتـان لأملاك (باتولا) . يقطن جيرسي في بيت يخص عائلة زوجته لقاء اجرة سنوية قدرها دولار . وبالاستناد الى اتفاق قديم العهد يدفع هو وزوجته بعض الامـــوال لاعفائه من الخدمة الاقطاعية . اما حماته الضريرة وابنتهـا الثانية التي لم تبلغ الثامنة عشرة فلا تدفعان شيئاً . ومما قاله لي: كانت عائلتي ميسورة الحـــال وكان لأخي صلات بالنبلاء أما أنا فلم أكن املك شيئاً ، لقد وعدنـي احد اقاربـي

الاغنياء بالمساعدة فيما مضى وذلك بايجاد وظيفة لي في ضواحي المدينة . فلما قصدته في العام الماضي اجابني أن بالامكان تحقيق ذلك بشرط اقامة الاحتفالات خلال يومين ولبس ثياب اكثر اناقة من ثيابي ، كان دخل الوظيفة حسناً الا انني لم استطع استقراض الاموال الضرورية للاحتفالات وقدرها ستمائة دولار فاضطررت الى تفويت الفرصة .

ثم سألت : ماذا ستفعل الاخت الصبية عند بلوغ سن الرشد فقيل لي : ان من مصلحتها دخول الدير . فألقيت نظرة على ضفائر شعرها الاسود الذي ستضطر الى قصه ، وسألتها هل هي موافقة على دخول الدير فهزت رأسها دون أن تجيبني . وتطوعت اختها بالاجابة ، قالت لي : حينما تكون الفتاة فقيرة فالافضل لها دخول الدير من أن تتزوج رجلاً لايستطيع تأمين عيش اسرته .

فسألتها : وأنت لماذا تزوجت ؟

فردت قائلة : كنت اظن ان زوجي مع ما له من اطلاع بوسعه ايجاد وظيفة مناسبة . قالت ذلك وهي ترمق زوجها والابتسامة بادية على محياها . ثم اضافت : زد الى ذلك انه رجل شريف . أما اليوم فأنا مسؤولة عن ثلاثة أطفال وامي العجوز . انك لترى ماهي حالتنا . ألم يكن من الافضل لي دخول الدير !

لم تبد على زوجها اية بادرة احتجاج . كانت عليه حقاً

هيئة الشخص الشريف بوجهه الذي يفيض طيبة واستسلاما.

وفي نهاية الغرفة لمحت مجموعة من الصور الدينية وعلى الحائط كانت ترى صورة لماوتسي تونغ . ولما هممت بالانصراف قدمت لهم بعض الهدايا فأجابني الزوج قائلا: شكراً جزيلا لقدومك الى مسكننا المتواضع وأنت الموظف الكبير . وحاولت ان افهمهم بأنني لست موظفاً إلا أن الجدة العجوز القابعة في الظلام قاطعتني بقولها:

« في الزمن الماضي لم تكن تجري اشياء مثل هذه ، الأجانب يزورون الناس الفقراء... هل ترون ذلك . لقد تغير الزمان . من كان يهتم بالشخص فيما مضى إذا حل به المرض . أما اليوم فان جيرسي يتلقى العناية الطبية مجاناً في المستشفى منذ سنة . أشياء كهذه لم تكن لترى في الماضي » .

الفصل الثالث والعشرون

مشكلة الطب

لا تشكل العناية الطبية التي يتلقاها العامل الحرفي « جبرسي » حالة فردية استثنائية ، لأن الطب الحديث يعتبر اكثر التجديدات الحديثة تغلغلاً في حياة الناس في التيبت .

لا يجوز للاموي ، من الناحية النظرية ، اللجوء الى الطب الحديث . فهناك طب لاموي يستند الى خليط من مبادىء الطب الصيني القديم وطب الأعشاب والدين والتنجيم . والدواء المعتاد الذي يصفه الكاهن الطبيب يتألف من أعشاب لها مزايا مهضمة مشهود بها مع حبات فيها شيء من نفايات كبار اللاموات تؤخذ في يوم مناسب بحسب وضع النجوم . ولا يبذل الكهان عنايتهم إلا للاغنياء أما الفقراء فليس أمامهم الا ان يدفعوا ثمن بعض الصلوات

اذا كان لديهم المال اللازم .

ان أغلب المبادىء العملية للطب التيبتي ترجع الى عهد الملك غامبو وزوجته الصينية . وان الكلمة التيبتية الدالة على الطب ، معناها الطب الصيني . والحقيقة انهم أخذوا عن الصينيين بعض الطرائق الطبية وكثيراً من الادوية القائمة على الأعشاب . ودخلت على هذه الطرائق التجريبية مبادىء مستوحاة من السحر والفلسفة اللاموية . والطب التيبتي يعتمد منذ قرون على هذا الخليط من المعـــارف الطبية دون أن يتبدل فيه شيء .

وقعت على طبيب اسمـــه « شيزوب » وهو كاهن عجوز بدين ومرح ، عُرف بكونه أشهر الاطباء واقربهم الى الدالاي لاما . تخرج هذا الطبيب من مدرسة الطب التي تأسست منذ ثلاثمائة عام . وهو يدير المستشفى الديني الذي أسسه في لاهاسا عام ١٩١٥ الدالاي لاما الخامس عشر . ان المدرسة والمستشفى هما المؤسستان الوحيدتان اللتان تقومان بنشر المعارف الطبية القديمة .

لقد حدثني الطبيب شيزوب عن مبادىء واعمال الطب التيبتي وهو في غرفـــة مملوءة باللوحات والخطوط البيانية الملونة المصورة لاجسام انسانية ذات عيون جاحظة واعضاء داخلية موضوعة بشكل غير مألوف . ولا تدرس اقسام الجسم بالاعتماد على التشريح بل بالاستناد الى هذه اللوحات التي تعطي مخططاً غريباً للدورة الدموية الى اليمين ودورة

الصفراء الى اليسار . وتضع احدى اللوحات التشريحية قلب المرأة في مكان مخالف لمكان قلب الرجل . كما ان هناك مخططاً بيانياً يصور المراحل المتتالية للحمل والولادة اعتباراً من أول لقاء بين الفتى والفتاة . وهناك ايضاً صورة لمبضع إلا ان استعماله محظّر في الديانة اللاموية الـتي لا تسمح باجراء عمليات . وانهـا لخطيئة كبرى ان تفتتح ثقوب اخرى في جسم الانسان .

يسهر على تأمين الخدمات الطبية خمسمائة كاهن طبيب لا يغدقون خدماتهم الطبية إلا على كبار الكهان والنبـلاء والضباط . ويجب عليهم تمضية خمسة عشر عاماً من الدراسة النظريه ليصبحوا أطباء . تستدعي هـذه الدراسة بصورة خاصة ذاكرة بصرية قوية لأن عـلى الطالب أن يردد عن ظهر قلب في مدة يوم واحـد فقط ودون خطأ الكتب الاربعة التي تتضمن نواميس العـلم الطبي التيبتي . ويلي الاعداد الطبي دراسة تكسيلية عملية للتشخيص الذي يجري بست طرق : فحص النبض والعينين والاذنين واللسـان واللون والبراز . والطبيب مجبر على الألمام التـام بالكتب الطبية ليوصي بالصلوات والأدوية الخاصة بكل حالـة ، وعلى الاطلاع على عـلم الفلك لأن التشخيص والمداواة لا يكونان إلا في فترات معينة .

قال لي الطبيب شيزوب :

« اذا مات المريض فالخطأ يعـود على الطبيب لان

الطبيب اذا ما طبق تعاليم النصوص المستوحاة من بوذ العليم بحذافيرها فلا يمكن للمريض ان يموت . ان كل المعارف الطبية موجودة في الكتب الاربعة بصورة ان بوسع الطبيب العودة الى النصوص لمعرفة خطئه اذا مات المريض» .
كُتب الكتاب الاول منذ الفي عام بفضل احد التقمصات وقد اكمل فيما بعد في عهد الدالاي لاما الخامس .

ولم يبد على الطبيب شيزوب الحماس حين طلبت اليه ان يريني تشخيصاً بالاعتماد على اخذ النبض .

قال لي :

« انها ليست لحظة مناسبة ، من الافضل جس النبض في الصباح عند الفجر خاصة واحسن الايام هو يوم الاثنين » .

أخيراً وافق على اجراء تجربة ولكن دون ان يضمن صحة التشخيص .

وضع شيزوب الاصابع الثلاث الاولى من يده اليمنى على معصمي واخذ يعد في صمت ، ضربات نبضي بالنسبة الى وتيرة التنفس وهو يحدق في عيني . بعد قليل قال ان في جسمي كثيراً من النار وقليلاً من الماء ؛ الأمر الذي بدا لي معقولاً بعد سمر الليلة الفائتة حيث اكثرت من الشرب .

ثم شرح لي شيزوب قائلاً : ان كل كائن حي بما في ذلك الحيوانات والنباتات مؤلف من خمسة عناصر

موضوعة بحسب التسلسل التالي : المعدن، الخشب ، الماء ، النار ، التراب . كل واحد من هذه العناصر أقوى من الذي يليه . والمهم هو حفظ التوازن بين هذه القوى الخمس ، لان المرء اذا قل فيه عنصر النار مثلاً لم يعد بامكان هذا العنصر ان يؤثر في الماء وهكذا بالنسبة الى البقية . ان عنصر النار يتضاءل غالباً عند الشخص المسن . وان النقص في المعدن يلاحظ عند الاشخاص القصار ذوي الساقين المعقوفتين والرأس الضخم . ويمكن اكتساب عنصر النار بشرب غلوة مصنوعة من الاعشاب المقطوفة من منحدرات الجبال المعرضة لاشعة الشمس وبوضع وعاء من الماء الساخن .

ثم سار بي شيزوب لنقوم بزيارة صيدلية المستشفى وهو مستند الى كاهن شاب . تتضمن المحفوظات الطبية اكثر من ستة آلاف نوع من النباتات مجموعة من كل أطراف آسيا . وقد اكتشفت ان الطرائق المستعملة لمحاربة الحمل ممنوعة في التيبت وان قرن وحيد القرن يستعمل لمحاربة السل وان الزئبق يستعمل في معالجة السفلس وان التخدير معروف في التيبت منذ الفي عام .

تُستخرج المواد المخدرة من جذور شجرة تدعى الداتورا . وينبغي استعمالها بحذر من قبل شخص مجرب . وبامكانها ان تخدر الشخص تخديراً كلياً مدة اثني عشرة ساعة . ويجري حساب النسبة بحسب العمر والوزن وحالة

المريض العامة. ويسمح بالتخدير في الحالة الجراحية الوحيدة التي تبيحها الديانة اللاموية وهي البتر .

أما تحضير الادوية فيجب ان يجري في مطلع الهلال الصاعد لتسير صحة المريض نحو التحسن . وفي حالات الضرورة القصوى ينبغي انتقاء يوم مناسب بالاستناد الى التقويم يقوم على اعتبار الارض مسطحة ومقسومة الى مقاطع تناسب شتى مراحل القمر .

خلال كل محادثتنا ، كان يدور في فكري سؤال تجرأت أخيراً على طرحه :

ــ ألا يجازى الطبيب ما دام مسؤولاً عن وفاة المريض سواء بسبب جهله ، او بسبب تفسيره النصوص تفسيراً خاطئاً ؟ .

برقت ومضة في عيني الطبيب الماكرتين واجاب :

ــ اذا كانت نية الطبيب حسنة فلا يستحق العقاب . كل انسان معرض للخطأ . اما اذا اكتشفت لديه نية اجرامية فينبغي مجازاته بحسب القانون .

ان كل ما هو مضر بالمريض تحظره النصوص . هذه شريعة غامبو .

ان الطب التيبتي كسائر ما في التيبت يمر بفترة ازمة نتيجة للاحتكاك مع الافكار الجديدة . والزمن وحده كفيل بحل هذه المشاكل ، وقد بدأ عدد محدود جداً من الكهان بدراسة التشريح والامراض السارية في المستشفى الشعبي .

ويبدو ان أطباء المدرسة القديمة يعتبرون معارفهم الطبية كافية إلا انهم يعترفون بفائدة الجراحة الحديثة .

وكي تتكون عندي فكرة تامة عن الطب التيبتي قمت بزيارة مدرسة الطب المشادة على قمة « تلة الحديد » المطلة على قصر باتولا . ومن حسن الحظ انهسا مدرسة وليست مستشفى لأن الصعود اليها ينهك حتى الرجل السليم .

ان هذا المركز الطبي هو في الحقيقة معبد اسمه « أمن الشعب » رغم كونه يستخدم لتخريج أطباء في خدمة كبار الكهان والنبلاء في لاهاسا . اما الاطباء المخصصون للخدمة في الارياف فيتخرجون من مستشفى الطبيب شيزوب :

هناك اربعة وستون كاهناً عاكفون على دراسة الكتب القديمة في القاعة الكبرى المشتركة حيث توجد لوحات تشريحية ملونة تعود الى القرن التاسع . هذه المدرسة التي لا يدخلها أي مريض تطل على المدينة حيث يمكن رؤية المستشفى الشعبي الجديد . ويمكن للمرء ان يلاحظ بين الناس الذين يشكلون طابور الانتظار عند المدخل بعض النبلاء .

لئن كانت الامراض بالنسبة الى الفلسفة اللاموية عوارض لا تستحق إلا الاهمال فانها أصبحت بالنسبة الى المرضى مشكلة شخصية ملحة جداً . لذلك كان الكهان أول زبائن المستشفى الشعبي وتبعتهم بعد ذلك بقية الطبقات الشعبية لان العناية فيه مجانية . أما الوساوس الدينية فقد تبخرت ،

فصدق قول القائل : « أيها الطبيب طبب نفسك » .

ان التيبتيين يتأكدون يوماً بعد يوم من فعاليـة الادوية الحديثة مثل البنسلين خاصة ، والتلقيح الوقائي وأشعة اكس وعمليات العين والعناية بالاسنان والجراحة الحديثة . هنـاك كهان فقدوا البصر ولم تفدهم سنوات عديدة من الصلوات ، بل استعادوا الرؤية بعد اجراء عمليات جراحية في أعينهم وكثيرون من المصابين بالعرج عادوا الى السير .

ان اصحاب هذه المعجزات التي تحدث كل يوم ليسوا من الاشخاص الخرافيين الاسطوريين بل اشخاص عاديون من لحم ودم .

الفصل الرابع والعشرون

المدارس الأولى

في كل يوم ، بين الساعة الحادية عشرة والظهر ، تستطيع حجرة الهاتف العائدة لدار البريد الصغيرة في لاهاسا ان ترسل نداءات نحو كافة انحاء الصين . ونحن نصادف عادة في مثل هذه الساعة نساء يرتدين اجود انواع الاقمشة الانكليزية وصداري ذات الألوان الزاهية ، وبلوزات من الحرير ، ويضعن على رؤوسهن قبعات كبيرة ، وهن ينتظرن اتصال المخابرة مع « كانغ تينغ » ، « شينغ تو » و « بكين » ، حيث يتابع اولادهن ، واخوتهن واخواتهن دراستهم . ان الطلاب التيبتيين يشكلون العامل الرئيسي في تقدم تيبت المستقبل . فكل خطوة الى الامام في شتى الميادين تثير بالضرورة مسألة التعليم الذي لا وجود له عملياً في التيبت اذا لم نأخذ بعين الاعتبار ، المعابد حيث يتثقف الرهبان ويتعمقون بصورة خاصة في تعقيدات الديانة اللامية

والسياسة التيبتية ؛ ويتلقى غالبية النبلاء والتجار قسطاً من العلم في المدن وقسطاً آخر في المعابد على الطريقة الانكليزية في « دار جيلينغ » و « كاليمبونغ » ؛ ويعودون منها مزودين بمعرفة جيدة للانكليزية ، وشهادة للدخول « كامبرديج » ، ثم ينصرفون الى تجارتهم أو الى وظائفهم الرسمية دون ان يضعوا ثقافتهم في خدمة الانتاج الرئيسي للتيبت : تربية المواشي ، والزراعة . أما الاقنان واصحاب الحرف اليدوية فلا يتلقون أي قسط من التعليم بشكل من الاشكال .

اثر اتفاقيـة تمت بين « السير شارل بل » والدالاي لاما الثالث عشر عام ١٩٢١ افتتحت مدرسة شيفاتزي على رأسها مدير انكليزي يدعى « لودلو » وقد كتب شابمان ان : « المدرسة اضطرت لغلق أبوابها لعدم وجود اية مساعدة لها ، وقد التقينا بعدد من خريجي تلك المدرسة فكانوا يتكلمون جميعاً الانكليزية بطلاقة ، ويتقنون جيداً لعبة كرة القدم » .

وافتتحت بعد ذلك مدرسة اخرى في ظل حكم الكومنتانغ وفشلت هي الاخرى كذلك . لكن مدرسة لاهاسا الابتدائية تلقى حالياً نجاحاً كبيراً ، وهذا يعود بدون شك الى أن ثلاثة من رؤساء لجنة المدرسة ، من التيبتيين : البوذا الحي « تريشونغ » استاذ الدالاي لاما ، و « دوكاكالون » نائب أركان حرب جيش التحرير الشعبي ؛ واخيراً «لودن

كنشن » عضو سكرتارية الدالاي لاما .

خلال فترات الفرصة يجتاح ملعب المدرسة حوالى ٧٠٠ شاب تيبتي ، تتراوح اعمارهم بين خمس سنوات وعشرين سنة . ثم يعودون الى صفوفهم بسكون ، ونسمع بعد ذلك أزيزاً رتيباً يرتفع من كل صف دليلا على بدء التلاميذ في إنشاد صلاة مهداة الى اله الحكمة ، طالبين منه ان يفتح افهامهم للدراسة .

ويجلس الصبيان والبنات في الصفوف المختلطة ، على أرائك ضخمة ، بدون طاولة أو رحلة لانهم يكتبون على ركبهم تعبيراً عن احترامهم للغة التيبتية ، التي هي في نفس الوقت لغة النصوص المقدسة . وتتألف الدراسة حالياً من جداول الضرب والثقافة العامة ، والجغرافيا ، والموسيقي ، والفنون ، ومواضيع لم تكن ابداً تدرس سابقاً باللغة التيبتية . ويتجول المعلمون في الصفوف مراقبين كتابة الطلاب الذين يكتبون على لوحات من الخشب المسوّى ؛

ويجلس في الصفوف الدنيا التلاميذ الصغار بجانب آخرين يفوقونهم بالعمر ، لأن ثلثي التلاميذ يأتون من الأوساط الفقيرة ، ويجب ان يتعلموا مفاهيم التربية الابتدائية مهما بلغت اعمارهم . ويجري انتقاء المعلمين من النبلاء ورجال الدين .

ويجلس كذلك في هذه المدرسة منذ الصغر ، الاطفال المنتمون الى الطبقة الارستقراطية ، بملابسهم الزاهية الفاخرة ،

الى جانب اولاد الاقنان بثيابهم المهلهلة . والسبب في ذلك يعود الى مجـــانية التعليم المفتوح للجميع عـــلى السواء . وبالاضافة الى ذلك ، حين يحرم تلميذ اهله من اليد العاملة الضرورية لاعمالهم ، بسبب ذهابه الى المدرسة ، تدفع له مساعدة مادية تعويضاً له عن الخسارة المادية . وفي السنة الماضية قبض ١٢ طالباً من أصل ٧٣٢ التعويض الدراسي . كما كان يعيش ٩ تلاميذ داخليين على نفقة المدرسة .

حين خطر ببالي فشل المدارس السابقة التي أسست في التيبت سألت (كنش تودن) عما اذا كان يتوقع لهذه المدرسة الفشل كسابقتها بسبب النقص في التلاميذ ، فأجابني :

« اننا نشكو ، عـلى العكس ، من ازدياد طلبات التسجيل والتي تفوق امكانية المدرسة الحالية . يوجد لدينا حالياً ٣٨٠ صبياً و٣٥٢ فتاة ، ويمكننا زيادة هذا العدد الى الضعف اذا كان لدينا عـــدد كاف من المعلمين ، وقد تقدم الى فحص الدخول هذه السنة ٧٠٠ تلميذ ، رفضنا منهم ٣٤٠ تلميذاً بسبب قلة المقاعد . ولا شك انه من المؤلم ان نرفض بالنسبة لهؤلاء الاولاد دخولهم الى المدرسة كي يتلقوا العلم ولكننا لا نستطيع ان نفعل غير ذلك . وينصب انتقاؤنا بصورة خاصة على صحة التلاميذ واعمارهم ، فنقبل بصورة عامـــة الأكبر عمراً ، لأن الصغار يستطيعون انتظار دورهم .

تتحمل سلطات بكين جميع نفقات مدرسة لاهاسا ، ويوجد في التيبت حالياً ٢٧ مدرسة جـــديدة أقل شأناً ، تدار وفقاً لأصول اذارة مدرسة لاهاسا ، وبالاضافة الى الرؤساء الثلاثة ونائبي الرئيس التيبتيين ، يضع كبار رهبان معابد لاهاسا ـ اعمدة الدولة الثلاثة ـ برامج التدريس . وعــلى الرغم من ان التعليم الديني لا يدخل في البرنامج فان تدريس اللغة التيبتية ، والتاريخ ، وحياة الدالاي لاما ، له محتوى ديني بصورة رئيسية . أما الاجور الشهرية للستة عشر استاذاً ، فانها تتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ دولار ، تدفع من قبل السلطات المركزية .

على بعد نصف ميل من المدرسة الابتدائية وراء النهر الصافي ، توجد مؤسسة مختلفة تمام الاختلاف : معهـــد التربية الاجتماعية في لاهاسا والتي لهـــا ملحق في شيغاتزي . وصباح كل يوم من ايام الاسبوع يمكننا ان نرى الفتيات الشابات الجميلات والشبان يتوجهون الىالبيت الكبير المبني وفقاً لاصول الفن المعاري التيبتي .

قال لي ، (سونام بامبا) مدير المعهد التيبتي : ان نظام المؤسسة سلس ، يمكن للطلاب ان يختاروا المواد التي يرغبون في دراستها ، كما ان الدوام المدرسي ليس اجبارياً . أسست الكلية عام ١٩٥٢ لترسيخ قواعد اللغة التيبتية في أذهان الاساتذة ، وتعليمهم اللغة الصينية مع تاريخ التيبت . ولكن شباب المدينة سمعوا بالدروس التي

تتخذ شكل المحاورة في الهواء الطلق ، تحت الاشجار ، فطلبوا حضور هذه الدروس ».

وهكذا اضطررنا الى توسيع نطاق تعليمنا ، فأسسنا صفوفاً للتدريس في الداخل ، ويمنح الطلاب لدى انتهاء الدراسة شهادة تناسب مستوى ثقافتهم بغض النظر عن العمر . وما عدا دروس اللغة الصينية تدرّس جميع المواد الاخرى باللغة التيبتية ، ولو كان الاساتذة صينيين .

ثم لفت مدير المدرسة نظري الى جندي شاب في جيش التحرير الشعبي ، الذي يتابع دروس الرياضيات باللغة التيبتية « تشمل المواد المدرّسة بصورة خاصة : الثقافة العامة (وهو موضوع هام جداً في التيبت) والموسيقى ، والتربية البدنية ، والصحة ، والسياسة » . ولما سألته عن محتويات هذه المادة الاخيرة ، أجابني سونام قائلا :

ان الدراسات السياسية هي اختيارية ، كما هي الحال بالنسبة للمواد الأخرى ؛ وتتضمن بصورة خاصة ، دراسة نصوص ومغزى مختلف المعاهدات المبرمة من قبل التيبت وبشكل خاص اتفاقية ١٩٥١ بين حكومتنا المحلية والحكومة الشعبية المركزية . كما تشمل كذلك سياسة الحكومة الصينية نحو الدين والقوميات ، ونص الدستور الصيني الخ ..»

في طريق عودتي الى لاهاسا ، خلال الغابة ، التقيت بمجموعة مؤلفة من ٤٠ رجلاً وامرأة ينتمون الى جيش التحرير الشعبي متربعين على شكل حلقة ، يتلقون دروساً

في اللغة التيبتية . والواقع ان جانباً من نشاط كلية التربية الاجتماعية يهدف الى تعليم الصينيين اللغة التيبتية ، لانـه يتوجب على جميع الصينيين العاملين في التيبت ، ان يتكلموا باللغة التيبتية ، وهـذا يساهم في تخفيف نزعةالتعصب لدى الصينيين ، ويبين مدى احترام الصينيين للغة التيبت الوطنية . ولا شك ان أهم اسباب شعبية المؤسسات التعليمية في التيبت ، هو محافظتها على طابعها الوطني .

بينما تمنح المدارس الابتدائية والكليات تعليما عاماً متيناً، تقوم معاهد الاقليات الوطنية في كانغ تينغ و مشينغ تو و بكين باعداد الشبيبة التيبتية ، كي تلعب دوراً هاماً في تنفيذ مشاريع اعمار التيبت في ميادين الزراعة والصناعة وتربية المواشي . ففي نهاية عام١٩٥٥ بلغ عدد المسجلين في هذه الكليات الف طالب ، ويتألف من النبلاء واولاد رؤساء القبائل وعدد كبير من الاقنان والفلاحين . وكما هي الحال بالنسبة لبقية المدارس ، فان طبقة النبلاء تملك وحدها حق ارسال اولادها الى الجامعة ، اما الآخرون فيتعرضون الى طرق خاصة في الانتقاء .

ان جميع التيبتيين الذين يؤمون معاهد الاقليات القومية يدرسون الطرائق العلمية المطبقة على الزراعة وتربية المواشي. وتكمل الدروس النظرية بزيارات يقوم بها الطلاب لمزارع الدولة ، وللمؤسسات البيطرية . كما يحضر الطلاب حفلات عرض افلام خاصة ، تشرح عملياً المواد النظرية المدرّسة .

وقد قال لي نائب معهد (شينغ تو)، ان تعليمات الرئيس للاساتذة الفنيين هو عدم ارهاق التيبتيين ولكن افهامهم بطريقة موضوعية افضلية الطرائق العلمية الجديدة بواسطة التجربة العملية .

انهم يقتنعون تمام الاقتناع حين يستطيعون أن يلمسوا بأنفسهم عملياً الفرق الكمي والكيفي بين محصول زرع بموجب الطرائق العلمية ، وآخر وفقاً لاصول الزراعة التقليدية . اننا نؤكد دائماً على التجارب العلمية ، لأن التيبتيين لم يتعودوا بعد على التفكير العلمي والنظري .

يجد الطلاب التيبتيون الذين يقومون بزيارة الصين ، مواد عديدة كي يثقفوا انفسهم . وقد صادفت بعد عودتي الى بكين في احد المطاعم،شاباً ارستقراطياً من (شيغاتزي) فتحدثنا عن مستقبل التيبت ، قال لي :

حين وقع نظري على لاهاسا و بوتالا لأول مرة خلت انه لا يمكن وجود مدينة اخرى في العالم تعادل لاهاسا روعة وجمالا . وحينما وصلت الى شينغ تو بعد ذلك قلت انها لابد ان تكون اكبر مدن العالم . وبعد مدة أخذت القطار الى (شنغ كينغ) فشاهدت المصعد يتسلق الجبال ، الأمر الذي أدهشني كثيراً . اننا نحن معشر التيبتيين ، نعتبر الهضاب والمرتفعات اعداء لنا . كنت احسب انه لا يمكن للتيبت أن تتقدم بسبب الجبال ،ولكن عندما شاهدت ان شنغ كينغ مبنية بأكملها على قمة

جبل ، عاودني الامل ، وعندما وصلت أخيراً الى بكين ماراً عبر الصين الواسعة الشاسعة ، فهمت حينئذ اننا نشكل جزءاً من كل كبير .

وقد قال لي في لاهاسا الرجل المكلف باعداد التيبتيين لإشغال المناصب الادارية والطبية والزراعية والمصرفية والصناعية : « ان سياسة الحكومة المركزية ترمي الى تأليف اكبر عدد ممكن من الكادر التيبتي واعطائهم مسؤوليات جديدة ، وعندما يصبح عددهم كافياً لن تكون التيبت في حاجة الى الكادر الصيني الذي يسد النقص حالياً » .

ان التقدم يسير حتماً بسرعة ، نسبة الى شباب لم يشاهدوا قط العجلة ، ويقومون حالياً بدراسة نماذج الطائرات : ان شبيبة التيبت مثلها مثل شبيبة العالم اجمع ، تحدوها الرغبة في التقدم . وتثور حالياً ضد تفكير وتقاليد الاجيال الماضية المحافظة .

الفصل الخامس والعشرون

ماهو مستقبل التيبت ؟

يشق على المرء ان يترك لاهاسا بعد أن امضى فيها فترة ينعم بجمالها وروائها . الا أن وقت الوداع حلّ ، وكان من الواجب عليّ في نهاية تشرين الاول ، أن أترك جميع هؤلاء الاشخاص المهذبين ، الهادئين الذين اصبحوا من اصدقائي الحميمين . كانت الأزهار المتناثرة في كل مكان تضفي تحت أشعة الشمس الخفيفة شكل الربيع للوادي البديع ، ولحقول الشعير الذهبية المعدة للحصاد وبينما كان الطريق المتعرج ، يتغلغل بين الجبال ، التفت الى الوراء لأمتع النظر مرة اخيرة بالسقوف الذهبية والواجهة الحمراء لقصر (بوتالا) الذي لم يبق منه بعد قليل سوى الذكريات التي لا يمكن أن تنسى .

حاولت في هذا الكتاب أن اورد بأمانة ما رأيت وما سمعت ـ الحسن والسيء ، القديم والجديد، المشاكل الواجب

حلها ، الفشل والنجاح – كي يتمكن القارىء من أن يستخلص النتائج بنفسه . تركت الوقائع تتحدث ، ومع ذلك لجأت في بعض الاحيان الى الاستشهاد ببعض تعليقات الصحفيين والكتاب لالقاء بعض النور الاضافي على الحالة في التيبت . آمل أن اكون قد برهنت بوضوح على أن التيبت لم تعد (ارض الاسرار) ، وما دام في الامكان حالياً ، التجوال في جميع انحاء التيبت بواسطة سيارة ، فان انعزال التيبت الذي ساهم في خلق اسطورته الغامضة في مخيلات الغربيين لم يعد له وجود . وفي يوم قريب سنرى خطاً حديدياً يصل لاهاسا ، بفارسوفيا ، وبراغ ، وباريس ، ولندن . وقبل ذلك سيكون في امكان طائرات النقل ان تهبط في الوادي السحري حيث يعيش الدالاي لاما ، ان التيبت لم تعد (خارج نطاق هذا العالم) كما يقول عنوان كتاب (لوفيد توماس) ، ولكنه لا ينتمي بدون أي شك الى عالم هذا الكاتب .

ان الكتابات العديدة حول التيبت في الماضي ، تعود الى زمن كان فيه الجزء الأكبر من القارة الاسيوية يرزح تحت قيود الاستعمار ، ولم تكن تهدف هذه الكتب الا لمساعدة بريطانيا العظمى على فصل التيبت عن الصين ؛ وهذه هي الاسباب التي دعت اللاموين الاكبرين الى رجائي باعادة الحقائق الى نصابها وتصحيح بعض الاخطاء الشائعة لدى الغربيين . وقد أكد لي رئيسا الدولة ، أن

التيبت تشكل جزءاً من الصين في هذا اليوم كما كانت في السابق . ولم يجرؤ أي انسان على انكار هذه الحقيقة سواء في وقت دخول القوات البريطانية الى لاهاسا او في عهد الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا العظمى ، والصين والتيبت عام ١٩١٣ في مدينة (سيملا) .

وحين حلت لحظة الاختيار الحاسمة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، قررت التيبت وصل ما انقطع من الصلات التاريخية التي كانت تجمعها مع الصين ، ووقعت اتفاقية ١٩٥١ . وقد اتاحت هذه الاتفاقية لعدد من التيبتيين زيارة الصين ودراسة الحالة فيها ، وفي جملتهم الدالاي لاما والبانشن لاما . وقد عاد اللاموان الاكبران بعد ذلك مع حاشيتهما ، الى التيبت ، مقتنعين ان النظام الجديد في الصين يحترم الحرية الدينية ، كما انه يتمتع بامكانيات هائلة لتطوير الصين تطويراً سريعاً بصفتها دولة صناعية كبرى .

ومنذ ذلك الوقت لم يكف الدالاي لاما والبانشن لاما عن الترديد بان التيبت ستتحول الى بلد اشتراكي بنفس الوقت مع بقية الصين . والقضية المطروحة على بساط البحث هي كيف يجري هذا التحول ؟ كيف يتمكن نظام اجتماعي بقي حوالى الف سنة جامداً ، ان يتطور بشكل جذري ؟

أشار قداسة الدالاي لاما الى هذه القضية خلال مؤتمر

تأسيس اقليم التيبت المستقل المنعقد في لاهاسا سنة ١٩٥٦ فقال :

« ان الاشتراكية تعني اقامة مجتمع ينعم حقاً بالسعادة ولن يأخذ التيبت طريقاً آخر . يوجد حالياً أمام بلدنـــا طريق طويل ليصل الى الاشتراكية . يجب القيام بالاصلاحات تدريجياً ، وان طبيعة وزمن تحقيق هـــذه الاصلاحات يتوقفان عـــلى تطوير العمل ومختلف الظروف الاخرى العملية . ولن تحدث هذه التغييرات الا بالاتفاق مع حكام التيبت ومجموع الشعب التيبتي » .

كما ادلى الصيني (شانغ كو) نائب رئيس لجنـــة تأسيس التيبت المستقلة بتصريحات هامة خلال المؤتمر حول سياسة الحكومة المركزية فيما يتعلق بالاصلاح في التيبت :

« ان اقليم التيبت يختلف اقتصادياً واجتماعياً عن المناطق المسكونة من قبل الصينيين والاقليات الوطنية الاخرى ، لذلك فان التدابير التي ستتخذ لادخال الاصلاح في التيبت ستكون مختلفة تمام الاختلاف عن التدابير التي طبقت في الاجزاء الاخرى من الصين . »

« وستطبق الاصلاحات المقبلة في التيبت ، وفقاً لتعليمات الحكومة المركزية ، من الحلقات العليا الى الحلقات الدنيا ضمن روح التفاهم السلمي وبالاتفاق مـــع رغبة اكثرية الشعب التيبتي » :

« ستتخذ الحكومة ، خلال وبعد تطبيق الاصلاح ،

الخطوات الضرورية للمحافظة وحتى لرفع مستوى معيشة الطبقات الحاكمة للشعب التيبتي (بما في ذلك رجـال الكهنوت) »

« وهذا يعني بان التغييرات ستجري لصالح الجميع. »

« ان هذه الطريقة هي في نفس الوقت لصالـح الارستقراطية ورجال الدين والشعب ، وبعد تطبيق الاصلاحات لن تمس المعتقدات الدينية للشعب التيبتي . »

وقد صرح نائب رئيس الوزارة الصينية خلال نفس الاجتماع :

« يرى الحزب الشيوعي الصيني وحـكومة الشعب المركزية انه لا يمكن تحقيق الاصلاح في التيبت الا بناء على طلب اجماعي من حكام التيبت والشعب التيبتي ،ولا يمكن ان تفرض هذه الاصلاحات من قبل أي بلد آخر » .

على الرغم من هذه التصريحات ، فان المرء لا يتمالك من التساؤل عن الطريقة التي سيتبعها التيبت للتحول الى النظام الاشتراكي بعض الوقت مع بقية الصين ، أي في مدى اثني عشرة سنة . لم يحاول أي انسان ان يجيب على هذا السؤال ، لكني مستعد للتخـلي عن خطتي في تحرير هذا الكتاب اذا لم أحاول ان أعطي جواباً يستند على ما رأيت وسمعت خلال اقامتي في بلاد التيبت .

لاول وهلة يمكن ان تظهر التصريحات التي قيلت اثناء المؤتمر متناقضة . كيف نستطيع ان نبدأ الاصلاح اعتباراً

من الحلقات العليا للمجتمع التيبتي ، مع المحافظة وحتى رفع مستوى حياة الطبقات الحاكمة ؟ والحقيقة ان هذا ممكن اذا تغيرت وسائل الانتاج .

يتطلب تطبيق المذهب الاشتراكي بحرفيته ، ان تؤمم وسائل الانتاج ، اي الارض والمواشي ، الموزعة حالياً بين ايدي النبلاء ، ورجال الدين والحكومات المحلية . ولا يمكن زيـــادة مردود الانتاج الا بتحرير الارض والفلاحين واصحاب المواشي من علاقات الانتاج البدائية ويجب ان نخلق بصورة موازية ، تقدماً فنياً وديموقراطياً وان نسمح لمجموعة الاقنان الذين يعيشون على نظام السخرة ان تشكل طبقة عاملة تستطيع ان تعمل بحرية في الصناعة .

وبدون زيادة الانتاج الزراعي وتطوير الصناعة لا يمكن رفع مستوى معيشة الشعب الا على حساب الطبقات الحاكمة والحل الوحيـــد الذي يؤدي الى ارضاء الجميـــع ، يكمن في تطوير الاقتصاد التيبتي .

ولهذا فان اصلاح النظام الاقطاعي للملكية في التيبت سيجري بموافقة الارستقراطية الدينية والمدنية ، لأنه لن يحرمها من امتيازاتها الحالية . ان الاصلاح الزراعي ، واصلاح ميدان تربية المواشي ، هما الشرطان الرئيسيان لتأمين التقدم الاقتصادي والاجتماعي في التيبت . ولا يثير تحسن شروط حياة الشعب من جهة أخرى ، في الوقت الذي يرتفع فيه مستوى حياة الطبقة الحاكمة امام التيبت

ية مشكلة جدية ، كما هي الحال في الغرب حيث تتمتع الطبقات الحاكمة بمستوى حياة يفوق بمراحل كبيرة مستوى حياة الطبقات الحاكمة التيبتية . ان اكثر الناس ثراء من التيبتيين يظهرون عاديين في البلاد الأخرى . ولذلك فان مردود الانتاج ضعيف جداً في التيبت ، وطاقته الانتاجية واسعة جداً لدرجة ان أحداث تطوير عسام في وسائل الانتاج يعطي فائضاً كافياً من الانتاج ليرفع مستوى معيشة جميع افراد الشعب أغنيائهم وفقرائهم .

تنظر الارستقراطية (الواعية) الى الحــالة من زاوية جديدة . فقد تبين لها ان الاجرة المدفوعة من قبل السلطات المركزية الى مدير أو موظف أو معلم . تفوق غالباً مبالغ الدخل الذي تحصل عليه من استثمار مزارع واسعة . ان الرجل الذي يتقاضى ٢٠٠ دولار شهريــاً هو غني في التيبت وهذا مع ذلك يعادل ما يتقاضاه معــلم المدرسة الابتدائية في لاهــاسا . وكلما تطور الاقتصاد ، تنفتح آلاف فرص العمل امام الاطباء ، والمهندسين الزراعيين ، والبيطريين و الفنيين من مختلف الاختصاصات .ويمكن لجيل الشباب من النبلاء ان يأملوا الحصول على وظائف كبيرة في مجــال الطاقة الكهربائية المائية ، تدر أرباحاًتفوق ما يحصل عليه اهلهم من أملاكهم المستشرة وفقاً للطرق القديمة .

الا انه إذا كان على هذه التغييرات الجذرية ان تطبق خلال اثنى عشر عاماً وليس في مدى عدة قرون ، فانه

يقع على عاتق الحكومة الصينية أمر تزويد التيبت بالعون الاقتصادي والمال والفن على نطاق واسع . ان جميع الاصلاحات التي طبقت حتى الآن كانت تجري على سبيل التجربة وعلى نطاق ضيق ، اذ انه لا يمكن القيام باصلاحات واسعة وتغيرات اساسية قبل شق الطرق وتأليف حكومة تتمتع بالحكم الذاتي وفقاً للوضعية الجديدة المتفق عليها مع السلطات المركزية . ان المستشفيات ، المدارس، المزارع التجريبية ، المخابر ، الاعمال البيطرية ، القروض الزراعية ؛ التوزيع المجاني للادوات الزراعية ، والتوسيع التجاري ، ان كل هذا يعد العدة للمستقبل ، ولكنها لم تؤثر بعد على النظام الجامد العميق الجذور . ويستثنى من هذه الامور حالة الطب التي تقدمت كثيراً . ومن جهة اخرى ادى تقسيم التيبت الى ثلاث مقاطعات ادارية ، الى بقائها متأخرة ، كما ان صنف وسائل النقل زاد في هذا التأخر ، لان السيارات الشاحنة تضطر الى تخفيف حمولتها العادية لتحمل مؤونة من المحروقات ، في حالات السفر البعيد المدى وهذه المشكلة لا يمكن حلها الا بانشاء خط حديدي .

ان قصر « بوتالا » يشهد بقوة عمل وبراعة من الشعب التيبتي . وستجد هذه الصفات في التكنيك الحديث مجالا للتقدم تشابه ما حققه حكم « سونغستان غامبو » الملك ، وسلالة « تانغ » . أما الشبيبة التيبتية التي لا تشارك القدماء في

تفكيرهم المحافظ ، فانها تندفع بحماس في عصر الآلات والطيران . وقد قال لي أحد الشباب التيبتيين في بكين : « لا يمكن للتيبت أن تذهب بعيداً على ظهر (الياك) » ! ويرغب شباب التيبت رغبة كبيرة في متابعة دروسهم في بكين او شنغ تو : « عند عودتهم لن يكونوا راضين عن الاحوال الموجودة في البلاد » ، وهذه الكلمة صرح لي بها الرهبان التيبتيين ، وعلائم الحزن بادية على وجهه .

ومن الواضح ان النظام الاجتماعي في التيبت سيتغير بشكل لم يشهد له مثيل في التاريخ . وكما انتقل شباب التيبت من الحصان الى الطائرة دون المرور بالعربة ، كذلك سيقفز المجتمع التيبتي من النظام الاقطاعي الى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية المتوسطة .

ولا شك ان الدخول في المضاربات والتنبؤات سيذهب بنا بعيداً عن الحقيقة . هل سيتبع النظام الاشتراكي الطرق المتعددة لمرحلة الانتقال الاجتماعي فيشكل بادىء ذي بدء حكومة مكونة من تحالف الرهبان والنبلاء وممثلي الطبقات الكادحة ؟ لم أجد في التيبت أحداً خاطر في اعطائي الجواب على ذلك السؤال . والرأي السائد هناك ، هو انه عوضاً عن الدخول في التكهنات يجب قبل كل شيء متابعة تنفيذ الاصلاحات الجارية حالياً والتي تحظى بتقدير الأكثرية ، لانها تساهم في زيادة الانتاج وتحسين مستوي الحياة .

وبعد ذلك سيجد الشعب التيبتي طريق التقدم الديمقراطي تحت تأثير الاقتصاد الناشيء : ولا شك ان النظام الاجتماعي الخاص بالتيبت ، المبني على ماض تاريخي بعيد ، وتقاليد عميقة الجذور ، سينعكس على أوضاع البلاد خلال مدة من الزمن . أما عن الشكل الذي سيرتديه مستقبل التيبت ، فان الحياة نفسها ستتكفل بالاجابة عليه ، اكثر من المضاربات والتكهنات النظرية .

الاتفاقية الصينية التيبتية المعقودة
في ٢٣ ايار سنة ١٩٥١

•

ان القومية التيبتية تجر وراءها ماضياً تاريخياً طويلاً ضمن اطار الحدود الصينية وتشترك مع قوميات اخرى في شرف القيام بالواجب خلال نشوء وتطور الوطن الأم ، على انه ، خلال المائة عام الاخيرة اجتاحت القوى الاستعمارية أرض الصين وبالتالي تغلغلت في التيبت حيث شجعت الفساد وأقامت الحدود من كل نوع . وقد ثابرت حكومة الكومنتانغ الرجعية مثل سالفاتها من الحكومات الرجعية على تطبيق سياستها في التفرقة بين القوميات غارسة الخلاف والتفرقة بين التيبتيين . والحكومة المحلية التيبتية لم تتخذ أي اجراءات لمجابهة الفساد والتحديات الاستعمارية متبنية موقفاً خالياً من الوطنية تجاه الوطن الكبير الأم . فأدت هذه الاوضاع الى زج التيبت وقوميته في هاوية سحيقة من الآلام والعبودية . وفي عام ١٩٤٩ أحرز النصر

التام على النطاق القومي أثناء حرب الشعب الصيني التحررية وانهاء العدو المشترك لمختلف القوميات — حكومة الكومنتانغ الرجعية — وطرد العدو المشترك لسائر القوميات — قوى العدوان الاستعمارية — خارج أرض الصين . على هذا الأساس اعلن تشكيل الجمهورية الشعبية الصينية وتأليف الحكومة المركزية الشعبية .

لقد أعلنت الحكومة المركزية الشعبية ، منسجمة بذلك مع البرنامج المشترك الذي وضعه المؤتمر السياسي الاستشاري للشعب الصيني ، ان كل القوميات الموجودة ضمن حدود جمهورية الصين الشعبية ، متساوية وان عليها ان تتحد وتتبادل المعونة وتجابه الاستعمار والعدو العام كيما تصبح جمهورية الصين الشعبية اسرة كبيرة متآخية متعاونة ومكونة من كل قومياتها . وسيمارس الاستقلال المحلي القومي ، ضمن اطار الاسرة الكبيرة لجميع القوميات في جمهورية الصين الشعبية في مناطق تمركز الاقليات القومية ؛ وسيكون لكل اقلية قومية الحرية في ان تنمي لغتها الكلامية والكتابية وفي ان تحافظ على تقاليدها ومعتقداتها الدينية أو في ان تصلحها ؛ وستعمل الحكومة الشعبية المركزية على تقديم المساعدة للاقليات القومية لتنمي عملها السياسي والاقتصادي والثقافي والتربوي .

وقد تحررت منذ ذلك الحين كل قوميات البلاد ما عدا القوميات الواقعة في مناطق التيبت وفورموزه : وان كل

الاقليات القومية تتمتع تمام التمتع بحق المساواة القومية وتمارس الاستقلال الذاتي الاقليمي الوطني تحت القيادة الموحدة للحكومة الشعبية الصينية المركزية وتحت قيادة الحكومات الشعبية على النطاق العالي . وكيما تزاح تماماً قوى العدوان الاستعمارية في التيبت وكيما تترسخ سلطة الجمهورية الشعبية الصينية وكيما يتحرر الشعب التيبتي وقوميته ويعود الى احضان الاسرة الكبرى للجمهورية الشعبية الصينية ويتمتع بنفس حقوق المساواة التي للاقليات الاخرى ويزدهر في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية ، فان الحكومة الشعبية المركزية حين كانت توجه اوامرها الى جيش التحرير الشعبي بالدخول الى التيبت ، كانت تحث الحكومة التيبتية المحلية لارسال موفدين لدى السلطات المركزية لتعارض في عقد اتفاقية بخصوص تحرير التيبت بصورة سلمية ، وفي نهاية نيسان ١٩٥١ وصل المبعوثون الى بكين بعد ان خولتهم الحكومة التيبتية المحلية جميع الصلاحيات ، وقد عينت الحكومة الشعبية المركزية ممثلين مطلقي الصلاحية ليدخلوا في محادثات ودية مع مبعوثي الحكومة التيبتية المحلية .

وقد اتفق الطرفان بعد انتهاء المفاوضات على عقد الاتفاقية التالية وضمان تطبيقها :

١ — يتحد الشعب التيبتي ليطرد من بلاده قوى العدوان الاستعمارية ؛ وان هذا الشعب يعود الى احضان

العائلة الكبرى في الوطن الأم : جمهورية الصين الشعبية .

٢ — تساعد الحكومة التيبتية المحلية كل المساعدة جيش التحرير الشعبي للدخول الى التيبت وترسيخ الدفاع الوطني .

٣ — بناء على السياسة المتبعة تجاه الاقليات القومية والمحددة في البرنامج المشترك المنبثق من المؤتمر الاستشاري لشعب الصين ، فان الشعب التيبتي له الحق في ممارسة استقلاله الاقليمي تحت القيادة الموحدة للحكومة الشعبية المركزية .

٤ — لن تجري السلطات المركزية اي تعديل على النظام السياسي القائم في التيبت ولن تعدل هذه السلطات الوضع الرسمي ومهام وسلطات الدالاي لاما . وستبقى مختلف فئات الموظفين في مراكزها تماماً كما في الماضي .

٥ — كما ان الوضع الرسمي ومهام وسلطات البانشن ستبقى على حالها .

٦ — نعني بالوضع الرسمي ومهام وسلطات الدالاي لاما والبانشن وضع ومهام وسلطات الدالاي لاما الثالث عشر والبانشن التاسع حين كانت تسوذ بينهما علاقات ودية .

٧ — تطبق سياسة الحرية الدينية المعروضة في البرنامج

المشترك للمؤتمر الاستشاري لشعب الصين . وتحترم المعتقدات الدينية والتقاليد والاعراف الخاصة بالشعب التيبتي والمعـابد ستكون مصونة . ولا تتدخل السلطات المركزية في دخل المعابد .

٧ – يعاد تنظيم القوات التيبتية على مراحل متتاليـة ضمن اطار جيش التحرير الشعبي وتكون جزءاً من القوى الدفاعية الوطنية لجمهورية الصين الشعبية.

٩ – تجري تنمية لغة الكلام والكتابة والتعليم المدرسي للقومية التيبتية على مراحل متتالية تبعاً للاوضاع الحالية للتيبت .

١٠ – تجري تنمية تربية الحيوانات والصناعة والتجارة في التيبت على مراحل متتالية وليعمل على تحسين مستوى معيشة الشعب بصورة متدرجة بالاتصال مع الاوضاع الحالية للتيبت .

١١ – لن تفرض السلطـات المركزية اي اصلاح في التيبت . وعلى الحكومة المحلية التيبتية ان تقوم بالاصلاحات بمحض اختيـارها ؛ وحينما يطلب الشعب الاصلاحات فانها تتقرر بعد المداولة مع الأشخاص الحاكمين في التيبت .

١٢ – الموظفون الذين كانوا في السابق موالين للاستعمار والحكومة الكومنتانغ يقطعون كل صلة لهم بالاستعمار والكومنتانغ ولا يبدر منهم اي نشاط تخريبي او

اية مقاومة فبامكانهم البقاء في وظيفتهم بغض النظر عن ماضيهم .

١٣ ـ يحترم جيش التحرير الشعبي في التيبت كل البنود المذكورة اعلاه ويثابر بكل شرف على معاملاته التجارية دون ان يأخذ من الشعب بصورة اعتباطية حتى ولا ابرة خياطة .

١٤ ـ تتولى حكومة الشعب المركزية الادارة المركزية لكل شؤون التيبت الخارجية ؛ وتقيم التيبت تعايشاً سلمياً مع البلدان المجاورة وتساعد على تنميــة علاقات عادلة مع هذه البلدان على قدم المساواة والمنافع المتبادلة والاحترام المتبادل للارض والسيادة.

١٥ ـ كما تضمن الحكومة الشعبية المركزية تطبيق هذه الاتفاقية فانها تقيم في التيبت لجنة عسكرية وادارية وقاعدة عسكرية ؛ ويعمل الاشخاص المبعوثون من قبل الحكومة المركزية على اشراك أكبر عدد ممكن من التيبتيين في هذه الاعمال .

ان الاشخاص التيبتيين المحليين المشتركين في اللجنة العسكرية والادارية يمكن ان يكون بينهم عناصر وطنية من الحكومة المحلية التيبتية ومن مختلف المناطق والمعابد، وتوضع قائمة الاسماء بعــد المداولة بين ممثلي الحكومة المركزية الشعبية وسائر الاشخاص الذين يهمهم الأمر وتعرض هــذه

القائمة على الحكومة الشعبية المركزية لانتقاء الاسماء .

١٦ ـ ان الاموال اللازمة لتأمين حاجات اللجنة العسكرية والادارية ، ولتأمين مصاريف القاعـــدة العسكرية وجيش التحـرير الشعبي فستقدمها الحكومة المركزية .

وعلى الحكومة التيبتية المحلية ان تقدم مساعدتها لجيش التحرير الشعبي لشراء ونقـل الاغذية والعلف والحاجات اليومية الأخرى .

١٧ ـ يعمل بهذه الاتفاقية رأساً بعد وضع التواقيع والاختام .

وقعت وختمت من قبل :

مبعوثي الحكومة الشعبية المركزية مطلقي الصلاحية

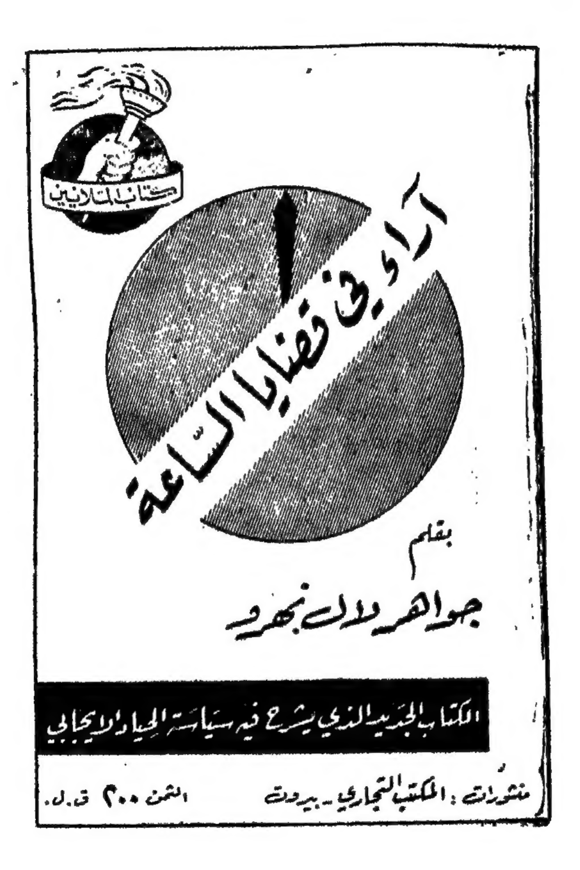
مبعوثي الحكومة المحلية التيبتية مطلقي الصلاحية

فهرست

	صفحة
مقدمة	٥
١ . ضيوف الآلهة	١٧
٢ . اجتياز جبال لانغ	٢٢
٣ . على ارتفاع ثلاثة اميال في سيارة جيب	٢٥
٤ . الجارية والملكة	٣٤
٥ . في بلاد التيبت	٤١
٦ . فوق أعلى طريق في الدنيا	٤٨
٧ . أول لقاء مع المدينة المقدسة	٥٠
٨ . مجد لاهاسا	٥٧
٩ . الكلب الذي أذنب	٦٤
١٠ . القانون والزواج	٦٨
١١ . المسرات في التيبت	٧٤
١٢ . الانكليز في التيبت	٨١

صفحة

١٣ : التيبت ، الهند ، الصين	٨٥
١٤ : فنجان شاي عند الدالاي لاما	٨٩
١٥ : اول سيارة جيب في شيفاتزي	٩٩
١٦ : رشاشات ضد بنادق ذات فتائل	١٠٨
١٧ : وليمة لدى النور الذي لا حدود له	١١٩
١٨ : الارقاء الزراعيون	١٣١
١٩ . الأرقاء الرعاة	١٤٤
٢٠ : التاجر التيبتي	١٥٢
٢١ . أول جريدة في التيبت	١٦٠
٢٢ . الصناعة والحرف اليدوية	١٦٧
٢٣ : مشكلة الطب	١٧٨
٢٤ . المدارس الاولى	١٨٦
٢٥ . ما هو مستقبل التيبت	١٩٥
الاتفاقية الصينية التيبتية المعقودة في ٢٣ ايار سنة ١٩٥١	٢٠٥


كتاب الملايين
آراء في قضايا الساعة
بقلم
جواهر لال نهرو
الكتاب الجديد الذي يشرح فيه سياسة الحياد الايجابي
منشورات : المكتب التجاري - بيروت
الثمن ٢٠٠ ق.ل.

إنّ "الفيزا" التي حصل عليها المؤلف بعد جهود شاقة للسّفر إلى التيبت، لم يشأ أن ينعم بها وحده .. بل أتاح لملايين القرّاء بواسطتها أن يشاهدوا ما رأى من عجائب مذهلة : "لاهاسا" عاصمة الأسرار المقدّسة ...
الدالاي لاما وما يحيط به من الأساطير ... شعب التيبت الغامض ، الشديد المراس ، الذي يعبد إلهاً حيّاً يحيطه بجيش من الكاهنات ، وبهالة مهيبة من الأسرار والطقوس العجيبة .. هذا الشعب الذي أثارت انتفاضته العنيفة على الصينيين الحمر انتباه كافة شعوب العالم ..

هذا الكتاب يثير لهفة القارئ من الغلاف إلى الغلاف !

الثمن
٣٠٠
ق. ل. س.